الأدب العالمي للناشئين

موبي ديك

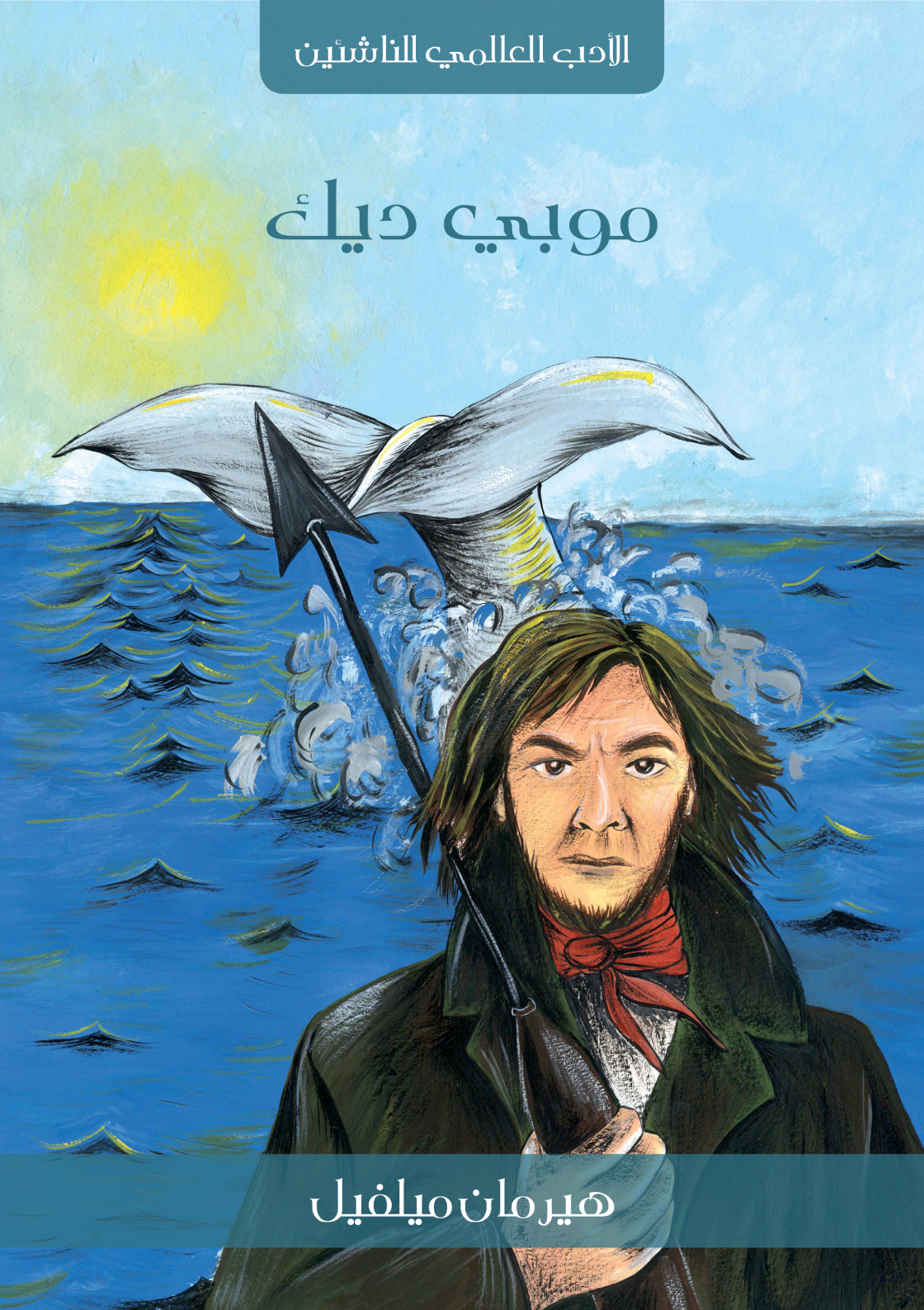

هيرمان ميلفيل

موبي ديك

موبي ديك

تأليف
هيرمان ميلفيل

ترجمة
كوثر محمود محمد

هنـــداوي

موبي ديك

Moby-Dick

هيرمان ميلفيل

Herman Melville

الطبعة الأولى ٢٠١١م
رقم إيداع ٢٠١١/٨١٠٢
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ميلفيل، هيرمان
موبي ديك/ بقلم هيرمان ميلفيل، ١٨١٩–١٨٩١.
تدمك: ١ ٩٠ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الأمريكية

أ- العنوان

٨٢٣

رسم الغلاف: شيرين سمير، تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Arabic Language Translation Copyright © 2011 Hindawi Foundation for Education and Culture.
This Arabic Language Translation is distributed under the Creative Commons Attribution, Noncommercial, No-Derivative Work license.

المحتويات

١- سباوتر إن	٧
٢- شريكي في الغرفة	١١
٣- الكنيسة	١٥
٤- الرحلة إلى نانتكت	١٩
٥- نانتكت	٢١
٦- بيكود	٢٥
٧- القبطان آهاب	٢٩
٨- موبي ديك	٣١
٩- خطة الصيد	٣٥
١٠- الصيد	٣٧
١١- مشاهدات	٤١
١٢- الحبال	٤٥
١٣- تقييد الحوت بالسفينة	٤٧
١٤- جابرييل	٤٩
١٥- يونجفراو	٥٣
١٦- أنباء جديدة عن موبي ديك	٥٥
١٧- ستارباك	٥٩
١٨- اليوم الأول	٦٣
١٩- اليوم الثاني	٦٧
٢٠- النهاية	٦٩

الفصل الأول

سباوتر إن

ادعوني إسماعيل. قبل بضعة أعوام، احتجت إلى العمل، لم يكن لدي آنذاك خطط لحياتي أو سكن فعلي، لذا قررت أن أبحر وأرى العالم، وقد فعلت هذا من قبل؛ عملت على متن السفن كلما شعرت بالاكتئاب، وإلا صرت عصبي المزاج، حتى إنني قد أجد نفسي أسير في الشوارع أطيح بالقبعات عن رءوس المارة.

أشك في أنني الرجل الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة؛ في المدن التي تجاور البحار مثلًا، ستجد المئات يحدقون في ماء البحر. لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكن لشخص أن يعمل بمكتب. أحتاج إلى الحرية، إلى أن أعيش بين أحضان البحار وإلا فقد أجن!

لا يسع الرجال أمثالي مقاومة سحر البحار؛ قد ننفق كل ما نملكه من أجل رحلة إلى شاطئ، قد نجتاز الصحاري لنصل إلى هناك، وأسعد لحظاتنا على متن السفن تكون عندما لا نجد على مرمى البصر اليابسة.

لكنني لا أقصد الرحلات البحرية بصفتي راكبًا؛ فالراكب يحتاج إلى النقود لشراء التذاكر ويصاب بدوار البحر، ويتذمر من سوء الخدمة على متن السفينة، أما أنا فأقصد الرحلات البحرية بصفتي بحارًا.

دسست قميصًا أو اثنين في حقيبتي، ثم حملتها تحت ذراعي واتجهت إلى المحيط الأطلنطي، لكنني وصلت إلى مدينة بيدفورد متأخرًا، وفاتتني آخر رحلة بحرية إلى جزيرة نانتكت؛ فشعرت بخيبة الأمل، لكنني صممت على العمل على متن إحدى السفن المتجهة إلى هناك.

كانت سفن صيد الحيتان أفضل وسيلة للإبحار آنذاك، وميناء نانتكت كان أقدم موانئ الولايات المتحدة، فلما أردت أن أصبح جزءًا من التاريخ لم أشأ أن أرضى بما هو أقل من الأفضل.

ازدهرت صناعة صيد الحيتان آنذاك؛ فزيوت الحيتان استخدمت في عمل زيوت المصابيح التي احتاجها الجميع للرؤية ليلًا، وفي إضاءة مصابيح الشوارع، لذا أبحرت مئات السفن كل عام بحثًا عن الحيتان، أبحرت في جميع أنحاء العالم عدة أعوام. العمل على متنها كان شاقًّا، لكنني وددت خوض هذه المغامرة.

لم تكن الرحلة التالية إلى نانتكت ستقلع إلا بعد يومين، لذا احتجت إلى العثور على مكان لأقيم فيه وعلى طعام آكله، إلا أنني لم أكن أعرف أحدًا في نيو بيدفورد، من ثم سرت إلى شاطئ المدينة حيث تقع نزل الإقامة ذات الأسعار الزهيدة.

عثرت في نهاية المطاف على فندق يدعى سباوتر إن، كتب على لافتته أن مالكه يدعى بيتر كوفين. كان مبناه مائلًا، أصدرت لافتته القديمة صريرًا مع هبوب الريح. لا شك أنه لم يكن فندقًا جيدًا، لكنه بدا مناسبًا تمامًا لي.

بدا داخله متهالكًا كخارجه؛ فورق الحائط كان متآكلًا انطفأ لونه، أما الأثاث فكان ممزقًا، ذكرني المكان بالسفن التي يُحظر استخدامها.

على حائط ما، عُلقت لوحة كبيرة قذرة لوثها الدخان سنواتٍ حتى أصبح من المتعذر رؤيتها. بدت ككتلة من السواد تغطي كتلة أخرى من السواد. حدقت فيها بعض الوقت حتى أدركت أنها صورة لوحش الأعماق المهيب، الحوت.

أما الحائط المقابل فقد غطته مجموعة من الحراب والرماح؛ الأدوات التي يستخدمها صائد الحيتان. تساءلت ما هي قصة تلك الأدوات؟ وأي صائد حيتان استخدمها؟

سرت في ردهة الفندق التي ملأها الغبار؛ فوجدت المزيد من خزانات العرض التي تحوي كنوزًا من أراض بعيدة، ثم وجدت غرفة جانبية فتسمرت إزاءها دهشًة. حوت الغرفة بداخلها عظام فك حوت هائلة الحجم إلى حد أنه قد تمر من خلالها عربة صغيرة يجرها حصان.

فبينما أحدق في دهشة في العظام، إذ دلف الغرفة كهل، أخبرته بأنني أبحث عن غرفة أبيت بها قبل أن أقصد نانتكت.

فسأل: «هل تمانع مشاطرة الغرفة مع رمَّاح؟ سيكون عليك أن تتعود هذا بأي حال إن كنت ستذهب لصيد الحيتان. أليست هذه غايتك من الذهاب إلى نانتكت؟ صيد الحيتان؟»

فأجبته: «لا أحب حقيقًة مشاطرة الفراش مع أي شخص، لكن إن كان هذا هو كل ما لديكم، وهو رجل مهذب ....»

فقال صاحب النزل: «جيد! هل تود تناول العشاء؟ سيجهز قريبًا.»

ثم خرج من الغرفة، وتركني وحدي لأفكاري. تساءلت عما بعد، وعما سيقدم على العشاء.

الفصل الثاني

شريكي في الغرفة

لم يمض وقت طويل قبل أن أجد نفسي جالسًا لتناول وجبة العشاء، شملت لحمًا وبطاطس وحلوى الزلابية. كانت وجبة طيبًة للغاية، بل كانت أول وجبة طيبة أتناولها منذ وقت طويل.

تأملت الرجال الذين جلسوا حولي على المائدة. ترى هل منهم المجهول الذي سيشاركني الغرفة؟ عندما سألت صاحب النزل هذا السؤال، هز رأسه نفيًا.

في نفس اللحظة، دلفت الفندق مجموعة صاخبة من الرجال. كان هذا طاقم سفينة جرامباس التي حطت منذ لحظات بعد رحلة استمرت ثلاثة أعوام.

جميعهم كانوا صاخبين، تبدو عليهم الحماسة والحيوية وهم يأكلون ويشربون، ودار بينهم حديث مشوق، فجلست في صمت استمع إليهم، تسليت كثيرًا.

بعد العشاء، انتظرت في غرفة الاستراحة بالفندق مع صاحب النزل. ظل الفضول يساورني حيال شريكي في الغرفة الذي لم يظهر إلى ذلك الوقت.

سألت صاحب الفندق: «أين عساه أن يكون الآن؟ هل يمكث دائمًا خارج الفندق حتى هذه الساعة؟»

فأجابني: «لا، لا، إنه يعود في العادة باكرًا ويصحو باكرًا. أعتقد أنه يواجه مشكلة في بيع بضائعه.»

فسألت: «بضائعه؟ ماذا تعني؟»

قال: «حُلي صغيرة يبيعها؛ عقود، ونفائس، وأشياء من هذا القبيل يعود بها من رحلاته، لكن البلدة تمتلئ بهذه الأشياء؛ فالكثير من البحارة يحاولون بيع هذه البضائع.»

فسألته: «هل تعتقد أنه لا يزال يحاول بيع بضاعته حتى هذه الساعة؟ لقد جاوزنا منتصف الليل.»

فأجاب: «من الصعب الجزم بهذا، لكنه لم يتأخر من قبل إلى هذا الوقت. أعتقد أنه قد لا يعود على الإطلاق.»

وهنا قررنا أن الوقت قد حان للخلود إلى النوم، فصحبني صاحب الفندق أعلى درج إلى غرفتي ثم أدخلني إياها. كان فراشها كبيرًا يتسع لأن ينام عليه شخصان بارتياح.

ظللت إلى تلك اللحظة متوجسًا من مشاطرة الفراش مع رجل غريب، مع أنني اعتقدت أن صاحب الفندق محق في أن زميلي في الغرفة سيبيت خارج النزل الليلة؛ فتقلبت في فراشي بعض الوقت قبل أن أغط في النوم، مع أنني كنت متعبًا.

لم يكد النعاس يغلبني حتى استيقظت على صوت وقع أقدام في الرواق المؤدي إلى الغرفة؛ فتمددت على الفراش في صمت وباب الغرفة ينفتح، وقف عند الباب رجل ضخم الجثة، دلف ثم وضع الشمعة التي يحملها في أحد أركان الغرفة.

فقلت له مرحبًا كي ينتبه إلى وجودي، لكنه لم يجب.

عندما التفت لينظر إلي، رأيت وجهه على ضوء الشمعة. رباه! لم أر من قبل وجهًا كهذا، ظننت في البداية أنه خرج لتوه من معركة؛ إذ بدا وجهه مزرقًّا مكدومًا، لكن بعد لحظة من التأمل أدركت أنه يضع وشمًا، زينت وجهه كله مربعات سوداء.

خلع قلنسوته المصنوعة من الفرو ووضعها جانبًا ثم خلع قميصه، فوجدت الوشم نفسه يغطي جسده.

فكرت في الفرار عبر النافذة، لكننا كنا في الطابق الثاني، وأيضًا أنا لست جبانًا، لم أر من قبل رجلًا كهذا، لكن هذا لم يكن أمرًا يستدعي الخوف.

هذا إلى أن بدأ الرجل في مهاجمتي؛ قفز فجأة على الفراش وأخذ يدفعني ويلكزني؛ فجاهدت لأفلت منه.

تمتم سائلًا إياي في غضب: «من أنت؟ أخبرني من أنت؟»

فصحت مناديًا صاحب الفندق: «بيتر كوفين! تعال بسرعة! هذا الرجل يهاجمني!»

لم تمض إلا دقائق قليلة قبل أن يصل بيتر كوفين إلى باب الغرفة حاملًا شمعته.

قال: «لا داعي لهذه الجلبة، لن يمسك كويكيج بأذى.»

فصحت: «لن يمسسني بأذى؟! انظر إليه! إنه يحاول إيذائي.»

لكن في اللحظة نفسها التي نطقت فيها بتلك الكلمات، لاحظت أن كويكيج يجلس في استرخاء مستندًا إلى الحائط وهو يبتسم لنفسه؛ فشعرت بالإحراج لأنني أحدثت جلبة.

فقال صاحب الفندق: «آسف لأن كويكيج فاجأك. حسبت أنك ستتفهم أنه نيوزيلندي. إنه فتى طيب. لن يحاول إخافتك مجددًا. أليس كذلك يا كويكيج؟»

فأجاب كويكيج: «لا، لن أصنع المزيد من المشاكل.» ثم قال لي: «لتنم الآن، حان وقت النوم.»

أدركت سريعًا أنني كنت غير منصف؛ إذ أصدرت الكثير جدًّا من الأحكام في وقت قصير عن هذا الرجل. صنع هذه التمثيلية لأنه فطن إلى أن مظهره بث في نفسي الخوف، لكنه لم ينو إيذائي.

أوى كلانا إلى الفراش، ولم أنم في حياتي نومًا أهنأ من الذي نعمت به تلك الليلة.

الفصل الثالث

الكنيسة

استيقظت صباح اليوم التالي شاعرًا بالحيوية والانتعاش، وصحا كويكيج في الوقت نفسه. شاهدته وهو يغتسل عند حوض الماء، ثم رأيته يرتدي ملابسه؛ لبس صدريته وقبعته ثم حمل رمحه وغادر الغرفة.

لحقت به بعد وقت قصير.

كان سائر النزلاء الذين جلسوا على مائدة الإفطار صائدي حيتان، لكنهم هذه المرة جلسوا يأكلون والصمت يخيم على المكان. وجدت هذا مضحكًا بالأخذ في الاعتبار أن البحارة يشتهرون بأنهم صاخبون ثرثارون، لعل تلك حالهم فقط عندما يبحرون أو يعودون من رحلة طويلة.

جلس كويكيج على رأس المائدة لا يأكل إلا اللحم ... لا الخبز، ولا زبدة المربى، اللحم فقط.

اتجه الجميع عقب الإفطار إلى حجرة الجلوس، أما أنا فخرجت للتمشية بعض الوقت.

كانت تلك أول مرة أقصد فيها بيدفورد، وقد أدهشني الناس هناك على اختلافاتهم، كان هناك بشر من جميع الألوان، بدا أنهم يرتدون ما يريدون. ارتدى رجل على سبيل المثال قبعة من فراء القندس وصدرية وحزامًا كبيرًا عُلق في جانبه سكين.

اتجهت إلى كنيسة؛ فأنا مسيحي، لكن لا يتسنى لي الذهاب إلى الكنيسة كل أحد؛ فمن الصعب أن أواظب على هذا لأنني أمضي الكثير من الوقت بين البحار.

كانت العظة على وشك أن تبدأ؛ فجلست بين البحارة وزوجاتهم وأراملهم أنتظرها.

وضعت في كل أنحاء الكنيسة ألواح تذكار للبحارة الذين لقوا حتفهم في عرض البحر، تبرع بها زملاؤهم الملاحون وأسرهم.

نظرت إلى يساري، فدهشت عندما وجدت كويكيج يجلس في آخر الصف الذي أجلس فيه. كنت أعلم أنه ليس مسيحيًّا، فقد حمل معه وثنًا يصلي له، رأيته معه في غرفتنا بالفندق.

أومأ كويكيج برأسه لي عندما رآني ثم عاد مجددًا إلى انتظار بدء العظة في هدوء.

سار القس — الأب مايبل — إلى مقدمة الكنيسة. كان كهلًا طويل القامة ذا لحية طويلة كثة زحف إليها الشيب، وقد عرف بأنه كان فيما مضى رماحًا. سمعت بعض صائدي الحيتان يتحدثون عنه قبل أن أصل إلى المدينة.

صعد الأب مايبل سلمًا ببطء على نحو درامي ليصل إلى المنبر؛ فلما بلغ أعلاه، سحبه إلى أعلى، فلم يعد بالإمكان لأحد صعوده ولم يعد هو قادرًا على نزوله. بدا كبحار على منصة مراقبة في سفينة، وكأنه يقف أعلى صارٍ.

طلب الأب مايبل من الحضور التزام الصمت ثم قال: «من الميمنة إلى الميسرة توجهوا إلى المنتصف! إلى المنتصف!» استخدم أسلوب البحارة؛ كان يطلب من الحشد الجلوس وترك جانبي القاعة.

ما إن بدأ القس مايبل يتكلم حتى هبت عاصفة هائلة، ضربت رياحها وأمطارها النوافذ، لكن لم يزعج هذا الأب مايبل؛ فقد خرج صوته قويًّا هادئًا، ولم ينزعج أي من الحضور من هذا، لم يكترثوا إلا بكلمات الأب مايبل.

حكى الأب مايبل قصة يونس في بطن الحوت وقال للحضور: «أنتم تعرفون القصة من الإنجيل؛ فقد سمعتموها، لكن هل أنصتم لكلماتها؟»

حكى القس كيف لم يرد يونس أن يمتثل لمشيئة الله وحاول أن يهرب على متن سفينة، فلما هبت عاصفَة هائلة، أدرك أفراد طاقم السفينة أنه سبب بلائهم فألقوه من على متن السفينة ليلتقمه الحوت.

لم يدع يونس الله أن ينقذه على الفور؛ فقد علم أنه تلقى عقابًا عادلًا؛ إذ أثم وكان بحاجة إلى بعض الوقت في سجنه ببطن الحوت، لكنه أدرك أن الله سينقذه إن رأى أنه يستحق ذلك. أراد القس أن يُفهِم الحضور أنهم إن اقترفوا ذنبًا — وعليهم أن يحاولوا تجنب ذلك — فعليهم أن يتوبوا كيونس.

كان الرجال الحاضرون بالكنيسة يدركون إلى أي مدى يمكن أن يكون الحوت مخيفًا؛ فجميعهم واجهوا هذا الكائن المخيف عدة مرات. ذكّر الأب مايبل صائدي الحيتان أن يسألوا الله المغفرة عند الوقوع في الخطيئة؛ فبذا نجا يونس من بطن الحوت.

عندما عدت إلى فندق سباوتر إن وجدت كويكيج جالسًا أمام مدفأة يقلب صفحات كتاب ما، كان يتوقف عن التقليب كل خمس عشرة صفحة ويتأمل الغرفة من حوله.

سنحت لي هنا فرصة لتأمله عن كثب، فتنبهت عندئذ إلى أن المرء لا يسعه إخفاء باطنه، قد يغطي كويكيج نفسه بوشوم سوداء — وهو أمر غريب علي — مع هذا بإمكانك أن ترى بوضوح أنه يملك قلبًا نقيًّا طيبًا.

لم يقل كويكيج شيئًا لي عندما جلسنا معًا، بل تصرف في الواقع وكأنني غير موجود بالغرفة. وجدت هذا غريبًا بالأخذ في الاعتبار أننا تشاطرنا غرفة الليلة السابقة، ألا يستوجب هذا حتى إيماءة رأس أو ترحيب؟

لاحظت عندئذ أنني لم أر كويكيج يتحدث إلى أي رجل آخر، بدا لي وكأنه منغلق تمامًا على نفسه، لذا قررت أن أصادقه.

جذبت مقعدي إلى المقعد الطويل الذي جلس عليه، وذكرته بما حدث الليلة السابقة، وبخوفي الشديد منه عندما دلف إلى الغرفة؛ فابتسم ابتسامة خفيفة.

وسألني إن كنت سأشاطره الغرفة مجددًا، فلما أجبته بنعم، بدا عليه السرور.

سألته مشيرًا إلى الكتاب الذي وضعه على ركبتيه: «هل تستطيع القراءة؟»

فهز رأسه نفيًا.

فأخذت أشرح له ما بالكتاب. كان عن صيد الحيتان بالطبع، ومن هنا تجاذبنا أطراف الحديث بسلاسة؛ فتحدثنا عن معالم المدينة والأماكن التي سافرنا إليها.

بعد برهة من الوقت ألصق جبينه بجبيني وقال إننا صرنا أصدقاء.

ثم قال: «أنا مستعد أن أموت من أجلك» وربت على ظهري بقوة وأضاف: «إن دعت الحاجة، فسأموت من أجلك.»

يستغرب أبناء بلدتي قول هذا بعد لقاء شخص ما مباشرة، أما كويكيج فلم يستغرب الأمر على الإطلاق، لذا لم أستغربه أنا أيضًا.

أراد كويكيج أيضًا أن أشاطره نقوده، فأخرج ثلاثين دولارًا فضية من جيبه وقسمها على اثنين وأعطاني قسمًا، فحاولت أن أرفض هذا لكنه أبى أن يصغي إلي، ووضع ببساطة العملات الفضية في جيب بنطالي.

حدثني كويكيج أيضًا عن مسقط رأسه؛ عن جزيرة تدعى كوكوفوكو تقع في أقصى الجنوب الغربي، لكنها ليست على أي خارطة، شأنها شأن الأماكن الفريدة دائمًا.

قال كويكيج إنه قضى طفولة رائعة، كان والده سيد قبيلة، لذا كان سيتسلم زمام حكم قبيلته يومًا ما، لكن مع أنه أحب موطنه فقد أراد أن يرى العالم، لذا عندما رست سفينة صيد حيتان في ميناء بلدته قرر أن ينضم إلى طاقمها.

وحاول على مر الأعوام أن يحظى بقبول زملائه على السفينة، فارتدى ملابس مشابهة لهم، وتحدث بلغتهم الغريبة، بل وحاول حتى اعتناق المسيحية، إلا أنه لم يستطع هذا، لذا قرر أن يظل وثنيًّا.

سألته إن كان يفكر في العودة إلى موطنه قريبًا.

فهز رأسه نفيًا وقال: «لا، يقلقني أني قد تغيرت كثيرًا إلى حد صارت معه عودتي إلى موطني مستحيلة. عالمكم المسيحي يختلف كثيرًا عن عالمي.»

ثم سألني عن السبب الذي أتى بي إلى بيدفورد، فأخبرته أنني قررت أن أجرب صيد الحيتان، وأنني أبحرت عدة مرات لكن لم أركب قط سفينة صيد حيتان، وأنني سأقصد نانتكت للبحث عن عمل، فقال إنه سيصحبني ويعمل معي على نفس السفينة وسنظل معًا؛ فسعدت بهذا.

الفصل الرابع

الرحلة إلى نانتكت

اليوم التالي دفعت أنا وكويكيج حساب الإقامة بالفندق وحملنا جميع أغراضنا على عربة يد إلى ميناء المدينة وأخذنا سفينة متجهة إلى نانتكت، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن أرى المتاعب التي يواجهها كويكيج لكونه مختلفًا عمن حوله.

أساء إليه الكثير من ركاب السفينة وانهالوا عليه بالكثير من السباب الجارح، وسبني بعضهم أيضًا؛ إذ بدا أن صداقتنا تزعجهم. استاء كويكيج من حديثهم إلي بهذه الطريقة، لكنه حاول قدر استطاعته أن يتجاهلهم.

لكن عندما حاول فتى ما أن يثبت قوته بدفع كويكيج، بدر من كويكيج رد الفعل؛ فحمل الرجل بكلتا ذراعيه ورفعه عاليًا فوق رأسه.

ظن الرجل أن كويكيج سيلقيه في البحر، فأخذ يصرخ: «اتركني».

لكن كويكيج اتجه به صوب الحشد الذي تجمع على ظهر المركب ووضعه فوق كومة من الصناديق. لم أكن حتى تلك اللحظة قد انتبهت إلى أن كويكيج فارع الطول. صار الرجل عالقًا في مكان مرتفع على ظهر السفينة؛ فاضطر أصدقاؤه إلى القدوم ومساعدته على النزول.

بعدئذ صنع الرجل جلبة كبيرة؛ فاستدعى ربان السفينة زاعمًا أن خطرًا ما يهدده وزعم أن الجميع معرضون للخطر لأن كويكيج يهدد حياتهم.

فلما رأى الربان وجه كويكيج الذي يكسوه الوشم، صدق الرجل وبدأ يصيح فيه، لكن كل ما فعله كويكيج هو أن وقف رابط الجأش صامتًا عند سور السفينة يتأمل البحر، رافضًا أن ينظر إلى كلا الرجلين. شعرت بالفخر بمعرفتي بهذا الرجل الصبور.

لم ينتبه ربان السفينة وطاقمه أثناء انشغالهم بكيل السباب لكويكيج إلى صاري السفينة الذي حمل عبئًا ثقيلًا. الحبال التي ثبتت هذا الصاري بمكانه ربطت حوله بإحكام شديد، لكن عندما انفتق أحدها، تأرجح الصاري بقوة.

بدا أن الكل لا يدري كيف يتصرف. وقف طاقم السفينة يشاهد الصاري وهو يتأرجح على ظهر السفينة إلى الأمام وإلى الخلف على نحو لا يمكن السيطرة عليه، والحبال التي ثبتته بموضعه تتأرجح معه ضاربةً الهواء كالسياط. خشي أفراد الطاقم أن يقعوا خارج المركب إن اقتربوا كثيرًا من الصاري.

وهذا هو ما حدث بالضبط. اقترب رجل منه ليلقي نظرة عليه عن كثب، لكنه أدرك بعد فوات الأوان أن القيام بذلك كان خطأً؛ إذ ارتدت عارضة السفينة إلى الخلف فطار في الهواء من على ظهر السفينة.

فسارع كويكيج بالتحرك، عثر على حبل آخر وربطه حول عارضة السفينة وكف حركتها باحتضانها والثبات في موقعه ثم انخفض تحت العارضة وربط الحبل بجانب السفينة الآخر فاستقرت العارضة في موضعها.

بعدئذ خلع كويكيج معطفه وقميصه وغاص في الماء وسبح حول السفينة بعض الوقت بحثًا عن الرجل الذي سقط خارجها، لكن لم يحالفه الحظ، كان الرجل قد اختفى.

لما عاد كويكيج إلى متن السفينة كان الجميع مدينون له بالفضل، لا سيما الربان، وحاولوا جميعًا الاعتذار عن السباب الذين كالوا له، لكنه تجاهلهم.

وسار إلى موضعه السابق عند السور وظل ينظر إلى البحر، لم يرد أن يتحدث إلى أحد، كل ما أراده هو أن يُترك وشأنه.

الفصل الخامس

نانتكت

إن مدينة نانتكت فريدة، لم أر مثيلًا لها من قبل، إنها موطن البحارة، أنا موقن من أنه لا يقطنها إلا البحارة أو أزواجهم أو أراملهم. عندما تسكن مدينة نانتكت، فأنت تسكن البحر.

وصلنا إلى المدينة في وقت متأخر هذه الليلة. أوصانا السيد بيتر كوفين صاحب نزل سباوتر إن بالإقامة في فندق يملكه ابن عمه يدعى تراي بوتس، وهو اسم يعني غلايات الشاي التي تستخدم في سفن صيد الحيتان لإعداد زيت الحوت. كان هذا الفندق في حال أفضل من فندق السيد كوفين. تناولنا هناك عشاءً طيبًا من حساء البطلينوس وسمك القد ثم اتجهنا إلى غرفتنا.

وأخذنا نخطط لليوم التالي. صمم كويكيج على أن أختار السفينة التي سنعمل عليها وقال إن هذا هو ما أخبرته به آلهته.

لكنني لم أر أن تلك فكرة جيدة، إذ لم أعمل من قبل على متن سفن صيد الحيتان، فكيف سأعلم أنني قد عثرت على السفينة المناسبة؟

فقلت له: «كويكيج، خبرتك تفوق خبرتي في هذا المضمار. علينا أن نبحث معًا عن السفينة. أنا أثق برأيك.»

لكنه هز رأسه نفيًا وقال: «عليك القيام بهذا بنفسك.»

أدركت أنه لا جدوى من جداله، من ثم قررت الخروج اليوم التالي كي أجد أفضل سفينة يمكن العثور عليها.

وبعد أن نمت نومًا هانئا لليلة أخرى، اتجهت إلى ميناء المدينة واطلعت على قائمة السفن التي ستبحر منه. لم أدر كيف أختار أفضل سفينة، لذا قررت أن أتفقد سفينة بيكود إذ كنت أعرف هذا الاسم، إنه اسم إحدى قبائل الهنود الحمر.

قصدت السفينة لأبحث عن ربانها، فإن بدا أنه الرجل المناسب، فسأنضم أنا وكويكيج إلى طاقمه.

لكنني لم أجد الربان على ظهر السفينة، وإنما عثرت بدلًا منه على رجل يدعى بيليج، مسئول عن تعيين الطاقم وشراء معدات الإبحار، فأخبرته أنني أبحث عن عمل.

فسألني: «لست من نانتكت. أليس كذلك؟» لست واثقًا كيف علم هذا، لكن لا شك أن حدسه أخبره بذلك.

فأجبته بلا، وأضفت: «هذه أول مرة أكون فيها على متن سفينة صيد حيتان، لكنني أبحرت كثيرًا من قبل.»

فقال لي وقد تقطب وجهه: «العمل على متن سفن صيد الحيتان يختلف عن أي عمل آخر. لا يهم إن كنت قد أبحرت من قبل. هل رأيت القبطان آهاب من قبل؟»

فقلت له: «لا، من هو؟»

أجابني: «إنه قبطان هذه السفينة، قبطان سفينة بيكود، إن رأيته فستفهم ما الذي يجعل العمل على سفن صيد الحيتان مختلفًا. القبطان آهاب عاش حياة صائد الحيتان الصعبة وعانى جراء هذا عناءً كبيرًا. إنه لا يملك إلا ساقًا واحدة.»

فقلت ذاهلًا: «ساق واحدة. كيف؟»

فأجاب: «لقد ظفر حوت بساقه الأخرى.»

في الواقع كاد بيليج وهو ينطق بهذه العبارة الأخيرة أن يصرخ بها. عجبت بعض الشيء من حماسته؛ كانت بالغة.

استطرد قائلًا: «هذه مهنة خطيرة. هل أنت على استعداد للاقتراب من الحيتان، لأن تكون على مسافة قصيرة جدًّا منها لترمي جانبيها بالحراب؟ هل ستتحلى بالشجاعة الكافية في مواجهة الموج والماء عندما يضرب الحوت سفينتك وهو يحاول أن يغوص عائدًا إلى قاع المحيط؟ كي تعمل على متن سفينة صيد الحيتان عليك أن تتأهب للموت أو لاحتمال أن تخسر ساقك.»

«أدركت أن بيليج يحاول إخافتي، لكنه لم يفلح في هذا؛ فليس من السهل إخافتي. لم أنظر إلى الأمر إلا على أنه تحدٍّ.»

فأجبته: «أنا مستعد لكل هذا.»

فقال: «حسنًا». وقيد اسمي على الفور.

قلت له: «لدي صديق يود أن يبحر معي. إنه صائد بالحراب ذو خبرة كبيرة، وعلى دراية بالاحتمالات الممكن مواجهتها.»

فأخبرني بيليج أن علي أن أعود به معي.

في وقت لاحق من هذا اليوم، وقعت أنا وكويكيج أوراق عملنا. أذهلت خبرة كويكيج بيليج حتى إنه قال إنه سعيد بتوظيفه صائد حيتان.

على كلٍ سرنا على مرفأ الميناء، فجاءنا رجل قذر الملبس أشعث الشعر، لم أره من قبل.

سألنا: «هل ستبحرون على متن هذه السفينة؟ على متن سفينة بيكود؟»

فأجبته: بنعم، فبدأ يضحك.

ثم قال: «وهل رأيتما رعدًا المسن؟»

فسألت: «رعدًا المسن؟ من هذا؟»

فأجاب: «إنه القبطان آهاب»، ثم ضحك مجددًا وقال: «هل حدثوكما عن قبطان سفينتكما الجديد؟»

فسألته: «عم يحدثوننا؟» أزعجني هذا الرجل. لا أحب الكلام الملتوي، أحب أن يقول المرء ما يعنيه، وهذا الرجل تحدث بكلام غامض.

فضحك بصوت مجلجل وقال: «عليهم أن يحدثوكما عن الكثير، ثمة الكثير مما يجب عليكم معرفته.»

فقلت: «نحن نعلم بساقه. نعلم أن حوتًا قد ظفر بها.»

فقال الرجل: «آه. إذن أنتم تعلمون بهذا»؛ فضحك مجددًا وهم بالانصراف عنا قائلًا: «إذن سأترككما لسفينتكما وقبطانكما الجديد.»

فصحت من خلفه: «إن كان لديك ما تود قوله، فقله.»

فصاح الرجل: «كلا، لقد وقعتما ورق الانضمام إلى الطاقم. لا رجعة الآن، سأترككما لمصيركما، أسعد الحظ لكما.»

الفصل السادس

بيكود

أمضينا بضعة أيام في تجهيز سفينة بيكود لرحلتها؛ فأصلحنا شرعها وجلبنا الأطعمة إليها وتفقدناها بحثًا عن مواضع تسريب؛ إذ كانت بصدد الإبحار ثلاثة أعوام؛ لذا تعين علينا أن نكون على أهبة الاستعداد.

على كل، صباح يوم ما، دنونا من السفينة، لنجد رجالًا يسيرون على ظهرها، رجالًا ليسوا من أفراد الطاقم العاديين، بل رجال يرتدون معاطف ضباط.

عند تلك النقطة التقينا بستارباك، مساعد القبطان وعلمنا أن القبطان آهاب على متن السفينة، وأننا سنبحر صباح اليوم التالي؛ فاجتهدنا جميعًا لإنهاء الاستعدادات للإبحار، لكننا لم نر القبطان، إذ لم يغادر كابينته.

رفعنا مرساة السفينة صباح اليوم التالي فابتعدت بنا ببطء عن رصيف الميناء وهي تصر محدثة صوتًا وهي تشق الهواء ببطء. بدا أننا نتحرك ببطء شديد في الماء، وكأننا لن نغادر الميناء قط؛ فحسبت لوهلة أن رحلة الثلاثة أعوام ستنتهي في غضون أول عشر دقائق، لكن جميع أفراد الطاقم تكاتفوا، ونجحنا في الوصول إلى الميناء.

بعدئذ خطب فينا بيليج خطابًا قصيرًا، لم يكن مسافرًا معنا، كانت أقصى نقطة سيقصدها هي المرسى ليدور بعدها على عقبيه عائدًا إلى نانتكت.

صاح بيليج: «حظ سعيد يا رجال، أنتم بصدد خوض رحلة طويلة، لكنكم في أيد أمينة. سيحسن القبطان آهاب قيادتكم.»

بعدها أعطى بعض الأوامر للرجال على ظهر السفينة؛ كان ستارباك سيضطلع بمراقبة المؤن، فيما سيعني ستابز بالحفاظ على الشرع في حال جيدة، ويعني فلاسك بألا تكون بالسفينة نقاط ضعيفة. هبط بيليج بعدئذ إلى زورق صغير بجانب السفينة وعاد إلى الشاطئ.

قبل أن يمضي وقت طويل، حاز ستارباك مساعد القبطان إعجابي. كان رجلًا عاقلًا، هادئًا، طويل القامة، ولد في نانتكت وله باع كبير في العمل على سفن صيد الحيتان. لم ينظر إلى العمل على ظهر السفينة على أنه مغامرة كسائرنا، بل رآه عملًا شاقًّا، يتطلب عناية وجدية، حتى إنه قال كثيرًا: «لا أريد على سفينتي رجلًا لا يخشى الحيتان.»

لم أفهم هذه العبارة إلا بعد أول مهمة صيد؛ فعندئذ أدركت أن من يحسب نفسه قادرًا على عمل كل شيء في مواجهة الحيتان يعرض الجميع للخطر. لا بد من توخي الحذر دائمًا، وستارباك وضع سلامة الآخرين فوق كل شيء، ولم يعن بإبهار الآخرين.

بما أنك قد علمت كل هذا، أصبح إكمال قصتي صعبًا؛ فستار باك رجل طيب، أخشى أن تسيء الظن به عندما تعلم القصة بأكملها. آمل أن تذكر أنني كنت شديد الإعجاب به.

مساعد الربان الثاني كان ستابز الذي اتسم بأنه مرح لا ينشغل بالهموم، يؤدي عمله فقط لا أكثر، ولم يبد أن هناك ما قد يزعجه. كان مزاجه لا يختلف سواء أن أحاطت بنا عاصفة مريعة، أو خضنا معركة مع أحد الحيتان أو أبحرنا في مياه هادئة.

أما فلاسك مساعد الربان الثالث فكان فظًّا نكدًا، إلا أنه برع جدًّا في عمله، لكن لم يبد أنه يستمتع به، فلم تدهشه عجائب البحار، ولم ير الحوت حيوانًا مهيبًا، بل رأى أنه ليس إلا صيدًا عليه اصطياده، لا أكثر ولا أقل، وعدم الإمساك بهذا الصيد كان لا يزيده إلا نكدًا.

كانت السفينة تبعث بأربعة زوارق على متن كل منها طاقم صغير عندما يلوح أحد الحيتان. قيل لنا إن القبطان آهاب قاد دائمًا زورقًا، فيما قاد ستارباك وستابز وفلاسك الزوارق الثلاثة الأخرى، وكل زورق حمل مجموعة من الصائدين بالحراب والجدافين.

اختار ستارباك كويكيج ليكون على طاقمه؛ فبما أنه مساعد القبطان الأول، سمح له بأن يكون أول من يختار الأفراد على زورقه، وقد فطن إلى أن كويكيج هو الأبرع في استخدام الحراب على ظهر السفينة.

مضت عدة أيام على بدء الرحلة دون أن نرى القبطان آهاب. أردت بشدة أن ألقاه، فقد أثار الرجل الغريب الذي التقيناه على رصيف الميناء فضولًا بي حياله، لذا بحثت عن وجوه جديدة كلما صعدت إلى سطح السفينة، وبحثت عن ستارباك ظنًّا أن آهاب سيكون معه، لكن لم يحالفني الحظ؛ فقد مكث في كابينته.

لم أر القبطان آهاب إلا بعد مضي أسبوع تقريبًا على بدء رحلتنا. نوديت مساء يوم لمراقبة سطح السفينة العلوي، فتلفت متفقدًا المكان وهنا سرت في بدني رجفة؛ فقد وجدت القبطان يقف في مقدمة المركب، يحدق في البحر.

كان رجلًا صارمًا صلبًا قوي البنية بدا كأنه نحت من صخر، بشرته غليظة سمراء من أثر إمضاء عدة سنوات تحت الشمس، حمل الجانب الأيمن من رأسه ندبة بيضاء طويلة، لم أعرف قط كيف أصيب بها، أو ما إن كانت قديمة أو حديثة، خمن أعضاء الطاقم أحيانًا كيف أصيب بها، لكن لم يعلم أحد يقينًا كيف حدث عليها.

خلف مشهده في نفسي انطباعًا قويًّا، حتى إنني لم انتبه إلى وجود عصا عاجية محل ساقه إلا بعد لحظات. كان رجلًا عظيمًا.

سدد نظره صوب البحر، مستغرقًا في التفكير، لا يتكلم ولا يأبه بمن حوله، ولا يحدثه أحد. بدا أن ما يراه يؤلمه ألمًا شديدًا، لكن لا أستطيع أن أخبرك إلام كان ينظر، فلم أر إلا ماء البحر يمتد بلا نهاية.

مكث آهاب على ظهر السفينة وقتًا قصيرًا ثم غادره؛ هبط سلمًا ببطء، حرك عليه ساقه العاجية نازلًا درجاته وعاد إلى كابينته بدون أن ينبس بكلمة.

الفصل السابع

القبطان آهاب

بعد تلك الأمسية صرت أرى القبطان آهاب كل يوم، لقد ظل يلزم الصمت لكنه يغادر كل يوم كابينته لتفقد السفينة ومراقبة الماء، وصار في حالة مزاجية أفضل مع مرور الوقت وتحسن حال الجو.

وعندما نسمت رياح أبريل/نيسان ومايو/أيار الدافئة بدأ يتصرف كسائر الطاقم، وبدا أنه يستمتع برفقتنا. علت وجهه أحيانًا نظرة كانت ستتحول على وجه أي رجل آخر إلى ابتسامة.

ازداد الجو دفئًا مع اتجاهنا جنوبًا. كان الاستمتاع بضوء الشمس على ظهر السفينة سارًّا، حتى القبطان آهاب آثر الهواء الطلق على البقاء في كابينته حتى إنه قال: «أشعر لدى النزول إلى كابينتي المظلمة أنني أهبط إلى قبري.» وبدا أنه يستعيد قوته وعنفوانه.

لم يكن القبطان آهاب شابًّا؛ فصعود الدرج ونزوله إلى كابينته شق عليه على الأرجح، لا سيما مع امتلاكه ساقًا عاجية، لكنه لم يكن ليقر بذلك. لم نستدل على ذلك إلا من أنفاسه؛ إذ كان أحيانًا يكافح لصعود الدرج.

وقد أمضى وقتًا كبيرًا في ذرع سطح السفينة جيئة وذهابًا، سيرًا من جانب إلى آخر، متفقدًا ماء البحر. تناهى وقع خطى ساقه العاجية على سطح السفينة الخشبي إلى أسماع الجميع بقمرة السفينة، لقد اتسم بأنه ذو إيقاع ثابت، بدا أنه يساعده على التزام وتيرة حياته اليومية. كان يبحث عن شيء ما في الماء، خمنت أنه ليس فقط حوتًا.

قد تحسب أن الحياة على ظهر بيكود كانت فوضوية؛ لأن البحارة — لا سيما من يعملون على سفن صيد الحيتان — قد يتسمون بالغلظة والخشونة، لكنهم يتبعون القواعد شأنهم شأن الجميع، فالحياة على متن سفن صيد الحيتان في الواقع تتبع نظامًا، ولكلٍّ دور فيها.

القبطان بالطبع هو القائد، وعلى الجميع إطاعته، فإن امتنع فرد ما عن هذا عوقب. قد يجبر عندئذ على القيام بأعمال إضافية، أو يحرم من نزول الشواطئ أو الاستراحة، فسطوة القبطان على ظهر السفينة مطلقة، وعلي الكل طاعته.

يلي القبطان في الترتيب القيادي مساعدوه؛ وكيلو الربان؛ أي ستارباك ويليه في الترتيب ستابز ثم فلاسك، وهم ينامون ويأكلون بمعزل عن سائر أفراد الطاقم، شأنهم شأن وكلاء الربان على ظهر أي سفينة.

تتباين معاملة أفراد الطاقم من فرد لآخر على ظهر سفن صيد الحيتان. فالصيادون بالحراب مثلًا شغلوا أحد أرفع المناصب على السفينة؛ لأنهم من يصيد فعليًّا الحوت بحرابهم، لذا يحظون بمعاملة خاصة.

كان القبطان آهاب رجلًا متقلب المزاج، ومع هذا لم يكن فظًّا، فقد أولى الجميع القدر نفسه من الاحترام وطالبهم دومًا باحترامه، لكنه كان باختصار رجلًا غريب الأطوار.

سرنا على نسق واحد كل وجبة بناءً على أوامره. كان الخادم يدعوه إلى مائدة العشاء، فلا يجيبه في البداية وكأنه لم يسمعه، ثم يلتفت فجأة ويقول: «العشاء يا سيد ستارباك»، ويهبط سطح السفينة متجهًا إلى مائدة العشاء.

أما ستارباك فكان ينتظر بضع دقائق إلى أن يتيقن من جلوسه على المائدة، ثم يجول ظهر السفينة بتمهل ويقول: «العشاء يا سيد ستابز.»

فيقوم ستابز وكيل الربان الثاني بالمثل ويمر بوكيل الربان الثالث ويقول: «العشاء يا سيد فلاسك.» ثم يهبط سطح السفينة.

أما فلاسك فلأنه لم يضطر إلى مناداة أحد، بدا دومًا أقل تجهمًا وهو يتجه لتناول العشاء، بل بدت عليه في الواقع السعادة، لكنه تظاهر بالجدية ما إن وصل إلى باب غرفة العشاء، إذ لن يروق للقبطان ذي المزاج المتقلب رؤيته بهذه السعادة.

جلس آهاب على العشاء صامتًا وكأنه أسد مهيب لا يحفل بمن حوله. حدق الجميع فيه في فضول، لكنه لم يضع نصب عينيه إلا طعامه. كان يقطع اللحم بسكين كبير ويأكل في صمت.

بعدما يفرغ القبطان ووكلاؤه من تناول طعامهم، يزال ما على المائدة، ثم يؤتى بالصيادين بالحراب لتناول عشائهم، الأمر الذي كان رائعًا لأن جميعهم كانوا ملونين، وفي الأغلب — على اليابسة قطعًا — لا يسمح للملونين بأن يأكلوا أو يناموا حيث يأكل وينام الرجل الأبيض، لكن الحياة بين أحضان البحار لها طبيعة مختلفة.

الفصل الثامن

موبي ديك

بعدما بدأت برودة الجو تخف، حان دوري لاعتلاء قمة الصاري وهي نقطة مراقبة بأعلى عمود (هو الصاري) تشبه الدلو وتعلو سطح السفينة بارتفاع كبير يسمح برؤية قطاع كبير من البحر، وبإبصار الأشياء من مسافة بعيدة، مما يمكننا من رؤية الحيتان في المياه البعيدة لنتجه إليها.

اعتليت قمة الصاري بعض الوقت فسمعت جلبة كبيرة على سطح السفينة؛ كان القبطان آهاب ينادي الجميع، حتى من يضطلعون بالمراقبة.

وقفنا جميعًا على سطح السفينة الرئيسي فيما وقف القبطان آهاب على منصة تعلو السطح الذي وقفنا عليه يذرعها جيئة وذهابًا كعادته وهو يحدث مساعديه والحماسة الشديدة تبدو عليه.

ثم التفت ليحدثنا وهو يحمل عملة ذهبية كبيرة.

قال: «هذه ستة عشر دولارًا أو دبلون (عملة ذهبية إسبانية قديمة).»

فتأملناه جميعًا بفضول عارم.

تابع كلامه قائلًا: «أول من يبصر حوتًا أبيض الرأس مجعد الجبين ذا فك معوج ويصطاده، سيفوز بهذه العملة.»

ثارت حماسة الرجال جميعهم، وهتف بعضهم ببعض كلمات التأييد.

قال آهاب: «ترقبوا مياه بيضاء. إن رأيتم فقاعات بالماء، صيحوا، إن رأيتم ماء منبثقًا، ادعوا الجميع إلى ظهر السفينة. نحن نبحث عن حوت أبيض، سنجده أينما كان.»

سأله أحد الصيادين: «أهذا هو الحوت الذي يدعى موبي ديك؟»

فسأل آهاب ذاهلًا: «هل سمعت بموبي ديك؟»

وسأل رجل آخر: «أيهتز ذيله على نحو هيستيري عندما يغطس مجددًا تحت الماء؟»

وسأل كويكيج: «هل غُرس بجانبه رمح يشبه المثقاب؟»

فقال آهاب: «أجل، أجل. لقد وصفتموه بالضبط. إذن، أنت رأيتموه. لقد رأيتم جميعًا موبي ديك!» بدت عليه الحماسة الشديدة.

قال بعضهم إنه رآه، والبعض الآخر قال إنه سمع قصصًا عنه فقط، وأخذ كل منهم يروي قصته عن الحوت الأبيض. ذرع آهاب ظهر السفينة جيئة وذهابًا مجددًا وهو يصيح ردًّا على كل منهم: «أجل، أجل»، وقال: «أنتم تتحدثون عن الشيطان موبي ديك!»

لم ير أحد قط القبطان آهاب يتصرف على هذا النحو الهيستيري، فقد عهدناه رجلًا هادئًا متقلب المزاج. تخوف ستارباك من أن يكون مكروه ما قد أصابه.

فقال: «سيدي»، لكنه نادى آهاب لعدة مرات قبل أن يفلح في جذب انتباهه، وسأله: «هل كان موبي ديك هو من بتر ساقك؟»

فهدأ آهاب وتوقف عن السير جيئة وذهابًا على ظهر المنصة، ووضع يديه خلف ظهره ثم نظر إلى ستارباك والأسى يغمره وقال: «أجل، موبي ديك هو من جعلني أعرج.»

لكنه لم يلبث أن ثار مجددًا؛ فصاح: «أجل! الحوت الأبيض هو من حولني إلى كسيح! هو من فعل بي هذا! سوف يدفع الثمن. سأطارده في كل البحار. سأطارده إلى أن يصبح لي!»

ثم التفت مجددًا إلى طاقمه وسار إلى حافة المنصة واستند إلى سورها، تابعناه من الأسفل بانتباه شديد.

استطرد قائلًا: «وأنتم يا رجال من سيساعدني، لأجل هذا انطلقت رحلتنا، ستبحرون معي في كل بحار الأرض إلى أن نمسك بهذا الحوت الأبيض، ولن نتوقف إلا إذا اختفي من الوجود.»

هلل الصيادون وأفراد الطاقم، كنا جميعًا على قدر المهمة، وكلنا أيد آهاب ... خلا ستارباك.

فسأله آهاب: «لم تبدو قلقًا هكذا. ألست أهلًا لمهمة العثور على موبي ديك؟»

فأجاب: «إن صادفني، فسأسعد بالقضاء عليه، لكنني لا أريده أن يحيدنا عن مهمتنا. لقد انضممنا إلى هذا الطاقم لصيد الحيتان، نحن نبحث عن زيت الحوت ولسنا هنا لنصيد عدوك الشخصي.»

فقال آهاب: «أعلم ما لا تعلمه»، ثم تمتم في غضب: «لقد كنت في فم هذا الحوت! لقد بتر ساقي! لن تتفهم الأمر ولن تستطيع أن تعدلني عن رأيي وإن حاولت أن تتحداني، فسأعتبر هذا تمردًا.»

فهز ستارباك رأسه؛ إذ كان يعلم أنه لا سبيل إلى جدال آهاب وتمتم قبل أن ينصرف: «هذا جنون.»

واصل سائر الرجال تهليلهم؛ إذ بث القبطان في نفوسهم حماسًا بهذا التحدي وهذه المكافأة، فأخذوا يهتفون: «الموت للحوت الأبيض!» «الموت لموبي ديك!»

شجع آهاب هتافهم بعض الوقت متلذذًا بحماستهم، ثم أمرهم جميعًا بالعودة إلى العمل، لكن أجواء الحماسة استمرت. كان ستارباك هو الوحيد الذي لزم الصمت، لكنه لم يكن إلا قلقًا حيال مهمتنا الجديدة.

الفصل التاسع

خطة الصيد

حتى بعد إعلان القبطان آهاب، لم يتحدث رجال الطاقم أيامًا — بل أسابيع — عن شيء آخر. بعضهم تحمس لصيد الحوت الأبيض، وبعضهم تخوف من هذا، لكن لم يرغب أي منهم في التفوه بكلمة ضد القبطان. كان ستارباك وحده هو من عارض دائمًا وأبدًا خطة آهاب، لكن حتى هو لم يتفوه بشيء عن المسألة مجددًا للقبطان.

أيدت القبطان في مهمته، إذ ألهمتني حماسته، وحاجته إلى الانتقام بثت في الحمية. شعرت أنها مهمتي أنا أيضًا.

موبي ديك كان معروفًا لدى صيادي الحيتان. سمع الكثيرون منهم به، لكن لم يره إلا القليل منهم، والكثيرون ممن زعموا أنهم رأوه ما كانوا إلا رواة قصص عنه، فالكثيرون أرادوا أن يرووا القصص عن موبي ديك. أنا كنت من هؤلاء.

عرف موبي ديك بحجمه الكبير وغضبه العارم، كان حجمه أكبر بكثير من حجم الحيتان الأخرى. لقد عرف بتحطيمه للسفن وإهلاكه للبحارة، وبأنه يضرب زوارق الصيادين ذوي الحراب بذيله ويهشمها. دارت الكثير من القصص عن هذا الحوت، حتى إن الفصل بين الحقائق والشائعات كان صعبًا. لقد شوهد في كل أنحاء العالم، في الوقت نفسه في أحيان كثيرة! الكل أراد أن يلقاه، والكل أراد أن يكون جزءًا من أسطورته.

وها أنا ذا أبحر مع رجل مر بتجربة حقيقية مخيفة مع هذا الحوت، يبحث عنه ليرديه، وبما أنني فرد من طاقم بيكود، فسأصبح جزءًا من هذا الحدث الجلل.

عكف القبطان آهاب ليلًا على دراسة خرائط الملاحة التي يملكها. جلس في كابينته مكبًّا على منضدته، يدرس الخرائط ومصباح زيتي يتدلى من سلسلة يتأرجح فوق رأسه مع حركة الموج.

قد يبدو البحث عن حيوان — مهما بلغ حجمه — في محيطات العالم كافة ضربًا من المستحيل، لكن لم يبد أن هذا هو رأي القبطان آهاب؛ فقد علم مواعيد اختلاف تيارات المد والمسارات التي تسلكها الحيتان سنويًّا والأماكن التي يهاجر إليها غذاء الحوت، وحفظ عن ظهر قلب الكثير من القصص عن موبي ديك، ووعى الأماكن والأوقات التي شوهد فيها، لذا كان موقنًا أن كل هذه المعلومات ستقوده إلى حوته الأبيض.

فالحيتان كالبشر لها عاداتها وتسلك الطرق نفسها؛ من هنا أيقن آهاب أنه يستطيع العثور على موبي ديك، واستحوذت تلك الغاية على عقله؛ فأمضى كل ساعات يقظته في تخطيط المسار الذي سنسلكه. درس كل الخرائط ولم يغادر الحوت الأبيض رأسه لحظة؛ لذا كان يومه كسابقه.

تساءلت إن كان البحث عن موبي ديك قد يضني القبطان آهاب وإن كان كل هذا القلق وكل هذه المخاوف سيقودانه إلى الجنون.

الفصل العاشر

الصيد

في عصر يوم أحد مشمس، كنت أعمل مع كويكيج على ظهر السفينة، نؤدي عملًا سهلًا؛ نخيط حصائر لزوارق صيد الحيتان. كانت مهمة سهلة، وقد استمتعنا بالوقت الذي أمضيناه معًا أثناء ذلك.

فجأة شق صراخٌ تلك اللحظة الهادئة ليقطعها.

صاح صوت: «قفوا، ها هو ينفث الماء.»

فهرعنا جميعًا إلى جانب السفينة لنتأمل موبي ديك، كان حوتًا عملاقًا، أخذ قلبي يخفق بعنف وأنا أشاهده يسبح مارًّا بنا، هالني كيف يتحرك جسم بهذا الحجم بهذه الرشاقة.

انبثق الماء من أنفه، ورأينا حيتانًا أخرى؛ فالحيتان تهاجر أسرابًا، وهذا السرب كان كبيرًا، وقد سبح على مقربة من سفينتنا؛ فهرع كل منا لاتخاذ موقعه على السفينة.

ركب وكلاء الربان الثلاث ستارباك وستابز وفلاسك زوارق الصيد الخشبية الصغيرة الخاصة بهم، بلغ طول هذه الزوارق عشرين قدمًا، وزود كل منها بشراع يتيح له الإسراع عندما يجدف الرجال على متنه لمطاردة الحوت.

قفز الصيادون والجدافون بدورهم إلى الزوارق التي اعتادت أن تحمل من ثمانية إلى عشرة صيادين وستة جدافين، وبعدما سارعوا بركوبها، جرى إنزالها الماء إلى جانب السفينة وركب القبطان آهاب زورقه مع رجاله وسرنا جميعًا في أثر الحيتان.

تناوبت الزوارق الأدوار في الاقتراب من السرب. كان على كل صياد أن يقترب منها إلى مسافة كافية تسمح له برمي رمحه. تصايح الرجال كثيرًا على متن الزوارق، فالتجديف حول تلك الوحوش العملاقة كان صعبًا، وتعين علينا جميعًا أن نتوخى الحذر، فأحيانًا تتقلب الحيتان على جانبيها وهي تغوص تحت الماء ساحبةً معها أحد الزوارق.

عندما تصل الزوارق إلى النقطة المناسبة بين الحيتان، يرفع الجدافون مجاديفهم لتقف منتصبة مواجهة السماء، لتتيح المجال للصيادين، ويتجهزون لإنزال المجاديف والتجديف معًا فور ما تصدر إشارة بذلك.

كنت في زورق ستارباك مع كويكيج أتلذذ بالإثارة التي حملها الموقف، كنا أول من سنحت له فرصة جيدة لإصابة الحوت. ملأتني الحماسة وحبست أنفاسي وصديقي كويكيج يتأهب للتصويب.

صاح ستارباك في كويكيج: «الآن! الآن!»

فوقف كويكيج وحمل رمحه فوق رأسه ورماه بقوة صوب الحوت.

طار الرمح في الهواء بمحاذاة الماء وشعرت أن الزمن قد توقف؛ بدا لي أن الرمح استغرق وقتًا طويلًا ليصل إلى هدفه. وقف كويكيج في ثبات تام متسمرًا في مكانه، مشدود العضلات وذراعه معلقة بالهواء وهو ينتظر أن يرى أين سيهبط رمحه، لكن الرمح أخطأ هدفه وسقط في الماء.

اتصل بنهاية الرمح حبل ليجذبه الصياد إن أخطأ هدفه، وهذا ما فعله كويكيج؛ جذب الرمح واستعد بسرعة للتصويب مرة ثانية.

فوقف من جديد على القارب بثبات مدهش — بالأخذ في الاعتبار قوة الأمواج التي بلغ ارتفاعها ما لا يقل عن عشرة أقدام — واضعًا نصب عينيه مهمته، فحمل رمحه عاليًا فوق رأسه ورماه مجددًا صوب الحوت.

هذه المرة ضرب نصل الرمح المعدني صدر الوحش الهائل لكنه لم ينغرز به؛ إذ أخذ الحوت يتقلب والرمح بالهواء، فانزلق مجاوزًا الحوت وسقط في الماء مجددًا. شعرنا جميعًا بالإحباط لكننا لم نظل كذلك وقتًا طويلًا؛ فسرعان ما واجهتنا مشكلة أكثر خطورة.

بدأ الحوت يضرب الماء حوله بذيله؛ فاصطدمت موجه هائلة بقاربنا الصغير لتطرحنا منه، لكن دون أن تلحق به ضررًا.

سبحنا حول القارب بحثًا عن مجاديف أو أي معدات أخرى طرحها الماء من القارب. كان هذا صعبًا لكننا اضطررنا إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه. واجهتنا أيضًا مشكلة أخرى؛ إذ ساءت حالة الجو؛ فالمناخ سريع التقلب في عرض البحار، وحجب السماء فجأة ضباب كثيف سرعان ما هبت في إثره عاصفة.

اشتدت قوة الريح، وكان الماء باردًا. حاولنا جذب انتباه القوارب الأخرى، لكن لم يحالفنا الحظ؛ إذ كان من الصعب إبصارنا أو سماعنا وسط هذه العاصفة المتزايدة؛ لذا

لم يكن أمامنا سبيل لمعرفة مسافتهم منا، حاولنا أيضًا أن نصعد قاربنا الصغير لكن هذا بدوره كان صعبًا؛ فبدأت أشعر أننا قد لا نملك جميعًا القدرة على الصمود في الماء.

لكن عندئذ لاحت سفينة بيكود في الأفق، وشعرت لوهلة أنها ستدهسنا، لكن الطاقم أبصرنا في الوقت المناسب. التُقطت إشارة من قارب صيد حيتان آخر، وانتشلنا جميعًا لنصعد ظهر السفينة وشاهدت زملائي وهو ينتشلون واحدًا تلو الآخر.

كنت آخر من صعد بيكود. لم أشعر ببرد كهذا قط. ساعدني كويكيج وأعطاني بطانية دافئة.

فسألته: «هل يحدث هذا كثيرًا؟ هل تطرحون كثيرًا في الماء وأنتم تحاولون صيد الحيتان؟» كنت أرتجف بشدة حتى إنني وجدت صعوبة في الكلام.

فأومأ لي برأسه وابتسم قائلًا: «نعم، كثيرًا ما يحدث هذا.»

ثم ربت على ظهري وعاد إلى حياكة الحصيرة وتصرف كأن شيئًا لم يحدث؛ فأدركت أن علي أن أتعلم أن أفعل مثله.

الفصل الحادي عشر

مشاهدات

لمحنا في إحدى الليالي المقمرة بعيدًا عن ساحل البرتغال صفًا من الفقاعات في الماء، دل هذا على وجود حوت أو العديد من الحيتان تحت سطح الماء؛ فالحيتان تتنفس الهواء لأنها من الثديات وهذه الفقاعات أشارت إلى أنها تحت الماء تتنفس.

أول من لمح الفقاعات هو الرجل الذي وقف على قمة صاري السفينة؛ فنادى: «ها هو ينفث الهواء.» فعاد الرجال مجددًا إلى مواقعهم.

إلا أنهم تأخروا في هذا، فبحلول الوقت الذي بلغ فيه القبطان آهاب سور السفينة كان الحوت قد رحل؛ فأوينا إلى فرشنا ونحن نشعر بالإحباط.

ظهرت الفقاعات على سطح الماء مجددًا بعد عدة ليال؛ انبثق الماء والحوت يصعد إلى سطح الماء لينفث الهواء من منخاره، وشقت نافورة من الماء عنان السماء فصاح المراقب الذي وقف على قمة صاري السفينة مجددًا: «ها هو ينفث الهواء!»

فتحركنا جميعًا بسرعة … إلا أن الحوت اختفى بمجرد أن استعددنا لمطاردته.

أصر بعض الرجال على أنه الحوت نفسه وعلى أنه موبي ديك عينه، بل ظن بعضهم أيضًا أنه يستهزأ بنا ويتحدانا أن نقاتله.

ومن بين هؤلاء بالقطع القبطان آهاب؛ فقد شعر أن الحوت يثير غيظه، حتى إننا سمعناه يتمتم بصوت خفيض بكلمات ما.

بدأ ستارباك يشعر أن القبطان آهاب بدأ يفقد صوابه؛ فقد وضع نصب عينيه موبي ديك ولم يتحدث إلا عنه؛ لم يتحدث حتى عن زوجته وأطفاله في بلدته، ولا عن عدد الحيتان التي صدناها أثناء الرحلة، ولا عن مقدار زيت الحوت الذي سنعود به؛ لم يهتم إلا بالعثور على موبي ديك، كان هذا شغله الشاغل.

إن لحقنا بسفينة أخرى صاح سائلًا من على متنها: «هل رأيتم الحوت الأبيض؟»

فإن لم يبلغ بأي مشاهدة له، غضب، وذرع ظهر السفينة ساعات جيئة وذهابًا، وتمتم لنفسه بشيء ما، ولوح بقبضته أحيانًا في الهواء.

أما إن أُبلغ بمشاهدته فكان يشعر بالحماسة، ويعكف على دراسة خرائطه بدقة ليخطط وجهتنا التالية. بحث دومًا عما قد يأكله الحوت وكان موقنًا أن الحوت الأبيض سيسلك هذا المسار.

أبحرنا ذات يوم مارين بسرب من الأسماك الصغيرة التي تتغذى عليها الحيتان، وكان هذا مؤشرًا جيدًا على أننا قد نصادف حيتانًا عما قريب، فقررنا أن نكف عن الإبحار وأن ننتظر قدومها.

بعد مرور يومين فقط، أبصرنا جسمًا أبيض هائل الحجم أمامنا، كان أول من لمحه هو صياد يدعى داجو.

صاح قائلًا: «هناك! انظروا هناك! إنه الحوت الأبيض! الحوت الأبيض!»

كنا نسارع بالتحرك كلما صاح أحدنا بأن حوتًا على مرمى البصر، لكننا هذه المرة تحركنا بسرعة البرق، لم يرد أي منا أن يضيع هذه الفرصة، لم نرد أن يضيع من أيدينا الحوت الأبيض.

اتخذنا مواقعنا مجددًا في غضون دقائق ونزلت قوارب صيد الحيتان الأربعة الماء، وقادها قارب آهاب.

أبصرنا الكائن الأبيض على الفور، كان عملاقًا هائل الجسم، ممتلئًا، صعد إلى سطح الماء على مقربة من قاربنا، ثم سبح تحته.

تسارعت نبضات قلبي، وعجزت عن التصديق بأننا كنا قريبين إلى هذا الحد من موبي ديك! بعد كل ما دار عن هذا الحوت من أقاويل وقصص، كنا أخيرًا على وشك الإمساك به.

دهشت من هدوئه، فكل القصص التي سمعتها عنه تذكر تحطيمه للقوارب بذيله وطرحه للبحارة عن متن سفنهم. لقد صعد إلى سطح الماء ثم غطس مجددًا، كان وديعًا، لم يبد حتى أنه يلحظ القوارب المحيطة به.

سمعت ستارباك يقول بهدوء: «هذا ليس الحوت الذي نبحث عنه.»

لكن لم يسمعه أحد آخر، فقد تعلقت أعيننا جميعًا بالكائن الأبيض الذي يسبح تحت قاربنا. وقف كويكيج حاملًا رمحه في يده ينتظر أن يقرب الكائن إلى مسافة كافية تسمح له بإلقاء رمحه.

وسألت أنا ستارباك: «هذا ليس موبي ديك؟»

فأجاب ستارباك: «إنه وحش آخر من وحوش الأعماق»، ثم نظر إليّ من الجانب الآخر للقارب وتابع كلامه قائلًا: «إنه الحبار العملاق، لم يره إلا القليلون، ويعتقد الكثيرون أنه أكبر كائن بحري، ولا شك أنه مخيف بقدر الحوت الذي ننشده، بل قد يكون بالخطورة نفسها.»

فقلت: «لكنه ليس موبي ديك.»

فهز ستارباك رأسه ببطء. تساءلت إن كان يشعر بخيبة الأمل لأنه ليس موبي ديك. ألهذا كان هادئًا؟ أم أنه يشعر بالارتياح لأنه ليس موبي ديك؟

لاحظت بعد ذلك أن القبطان آهاب دار عائدًا بقاربه إلى بيكود؛ لا بد أنه أدرك بدوره أنه حبار.

عندما عدنا، كان آهاب قد قصد كابينته بالفعل، ولم يغادرها ثلاثة أيام.

الفصل الثاني عشر

الحبال

وصفت لك على مر حكايتي الطويلة الكثير من الواجبات على متن سفينة صيد الحيتان، فحدثتك عن الوجبات وإصلاح الشراع وحياكة الحصائر، وعن رماح صيد الحيتان والصيادين، ووصفت لك مطاردات الحيتان في القوارب والخطر الذي قد تواجهه إن طرحك الحوت من على متن القارب، لكن علي الآن أن أحدثك عن فائدة الحبال في صيد الحيتان. قد يبدو لك هذا أمرًا غير ذي أهمية، لكنه ذو أهمية كبرى.

يستخدم البحارة الحبال في المهن كافة تقريبًا على متن السفينة، وثمة طرق مختلفة لعقد الحبال تستخدم لأغراض مختلفة. فبعد قتل الحوت توظف الحبال في واحدة من أهم استخداماتها.

نحتاج إلى استخدام الكثير من الحبال عند جذب الحيتان هائلة الحجم إلى متن السفينة؛ فعندما يكون الحوت إلى جانب السفينة يوثق جسده بإحكام بالحبال والسلاسل. قد يكون طوله مكافئًا لطول السفينة أو أكثر! لذا فهذه مهمة شاقة.

تُربط الحبال من جانب السفينة إلى جانبها الآخر، اعتمادًا على الأسوار والأشرعة وتتقاطع عند نقطة مرتفعة فوق سطح السفينة، ويُجذب الحوت. يجب دائمًا أن تكون الحبال مستقرة وموثقة بإحكام. إن لم نتحل بالحذر الكافي، فستغرق السفينة بأسرها في الماء تأثرًا بثقل الحوت.

هذا عمل خطير، وليس من الصعب فقط أن تحفظ توازنك والسفينة تتأرجح متأثرة بوزن الحوت، فالسقوط أيضًا في غاية الخطورة؛ لأنك قد تقع من ارتفاع عالٍ وتصطدم بسطح السفينة، وقد تشتبك بالحبال وأنت تهوى. شُنق أكثر من بحار على هذا النحو.

الحبال من أهم أدواتنا لذا نعاملها باحترام، ونتركها على الشاكلة التي نريد أن نعثر بها عليها وهذا هام، لا سيما عندما نكون في عجلة كبيرة من أمرنا.

على سبيل المثال: عندما نصنع بكرات من الحبال كي يستخدمها الصيادون الذين يستخدمون الرماح، نتيقن من أنها جهزت جيدًا؛ فنتركها في حلقات تتراكم فوق بعضها ونحن نلف الحبل، بذا لا ينعقد الحبل، مما يعني أيضًا أن الرماح عندما تُلقى يمكن أن يتبعها الحبل بسهولة دون أن يعترض شيء طريقه، ودون تشابكات أو عراقل.

عندما تعمل بحارًا — وبالأخص على متن سفن صيد الحيتان — يجب أن تتأهب لأي حالة طارئة، فقد تطرأ التغييرات في لحظة. وأثناء صيد الحوت، يجب أن تكون ردة فعلك سريعة، ولا ينبغي أن تنشغل بالبحث عن الحبل، يجب أن يكون كل شيء معدًّا.

الحبال كانت جزءًا من عملنا اليومي المعتاد. كنا نتأكد من أنها جاهزة للاستخدام ومن أن كل زورق صيد مجهز بمجاديف وحبال ودلاء لطرد المياه الزائدة من القارب. بدأنا بهذا كل يوم.

وفي يوم كسائر الأيام، صعدت إلى قمة صاري السفينة لأبدأ مناوبتي. كان الجو دافئًا، وكان بطء الأمواج وتراقص أشعة الشمس على صفحة الماء يبعثان في النفس سكينة. حدقت في مكان بعيد فوق الماء، وسرعان ما شرد ذهني، لكنني لمحت فجأة فقاعات ودفعة من الماء تنبثق.

كان هذا حوتًا عملاقًا يتقلب في الماء على مقربة من بيكود، عندما زفر، انبثق الماء عاليًا في الهواء في مشهد جميل. من المؤسف أن نهاية هذا المخلوق الجميل حانت.

ناديت: «ها هو ينفث الهواء»، فدعى القبطان آهاب الجميع إلى ركوب زوارقهم، وانطلقنا من جديد.

حاولت الزوارق الأربعة الإسراع للاقتراب من الحوت. جرت الأمور على عجل؛ فأطبق ستابز وفريقه على الصيد ثم دعا رجاله إلى بلّ الحبال، الأمر الذي يعني أنها كانت شديدة السخونة من فرط الاستخدام وهي تهدد دائمًا بالاشتعال.

غاص صياد ستابز برمحه في ظهر الحوت، فقاوم بعض الوقت إلى أن توقف قلبه.

فاقتربت سفينة بيكود وعمل طاقم السفينة كله وكل من على الزوارق على سحب الحوت إلى بيكود، بعدئذ قطعنا الحوت لحفظ لحمه وزيته لاحقًا. تعين علينا الإسراع في هذا لأن أسماك القرش دائمًا ما تأتي سريعًا لتحظى بوليمتها.

لم يبتهج القبطان آهاب بالصيد كسائرنا؛ أعتقد أن هذا الحوت ذكره بحوت آخر. كان يسرف في التفكير في موبي ديك، الأمر الذي عكر مزاجه.

الفصل الثالث عشر

تقييد الحوت بالسفينة

عندما يقيد حوت بجانب السفينة يجب أن يُقطع ببطء وحذر. تسافر سفن صيد الحيتان في رحلات طويلة جدًّا ويأمل صيادوها دائمًا أن يصيدوا الكثير من الحيتان؛ فكلما ازداد عدد ما يصيدون منها، ازداد مقدار ما يبيعونه من زيوتها في النهاية.

يستحيل جلب حوت إلى ظهر السفينة، فهو ببساطة هائل الحجم، لذا علينا أن نقيده بجانب السفينة وأن نقطعه، وبعدها نحصل منه على الزيت والأجزاء التي نحتاجها ونخزنها على ظهر السفينة. في أحيان كثيرة تبحر سفن صيد الحيتان عدة سنوات، يمكن أن يُختزن زيت الحوت طوال هذه الفترة في خزان عملاق أو في براميل على ظهر السفينة دون أن يفسد.

يختص صائدو الحيتان بالجزء الأكبر من مهمة تقطيع الحوت؛ فهم خبراء في استعمال السكاكين، وهذا عمل قد ينطوي على مخاطر، لكن صائدي الحيتان ببساطة لا يظهر عليهم الخوف، ربما لأنهم تعودوا الأخطار.

عندما يقيد الحوت بجانب السفينة، يربط كل صائد حيتان حبلًا بحزامه ويتدلى من جانب السفينة. يوثق هذا الحبل بعارضة خشبية متصلة بسور السفينة تتدلى فوق الماء، مما يتيح للصياد مجالًا كبيرًا للحركة على جسم الحوت. يقف فرد آخر من أفراد الطاقم إلى جانب العارضة الخشبية ليساعد في توجيه الحبل المتصل بالصياد، ولكل صياد من يوجهه، ويعمل الاثنان معًا كفريق.

يتأرجح الصيادون جيئة وذهابًا في الماء أثناء تقطيع الحوت، ويرسلون أجزاء من اللحم إلى ظهر السفينة.

لكن ثمة العديد من المخاطر التي تتصل بهذه المهمة، فمن السهل مثلًا أن يصطدم الصياد بجانب السفينة، كما أنه قد يشتبك بالحبل الذي يوثق الحوت فيعلق تحت الماء.

شكلت أنا وكويكيج فريقًا جيدًا، هو عهد إلي أن أحكم الإمساك بالحبل وتوجيهه، وأنا عهدت إليه أن يتحرك بثقة ويحسن تقدير المسافات.

كان عليه أيضًا أن يراقب جيدًا أسماك القرش تحت الماء، فوجود حوت ميت على مقربة من السفينة، يجلب أسماك القرش التي تبحث عن وليمة.

لكن تقطيع الحوت ينطوي على صعوبة أخرى، لعلها قد خطرت لك بالفعل؛ الحوت ثقيل جدًّا، مما يعني أن السفينة قد تميل على أحد جانبيها تأثرًا بثقله.

ذات مرة عندما قيدنا حوتًا إلى جانب بيكود، جنحت السفينة بزاوية كبيرة حتى اضطررنا إلى تسلق ظهرها إلى الطرف الذي ارتفع واستخدمنا الصاري سلمًا، لقد انزلق كل ما لم يكن مثبتًا على ظهرها إلى الجانب المنخفض.

يحدث هذا أحيانًا لدى صيد الحيتان، مما يضطر القبطان في العادة إلى اتخاذ قرار هام؛ إما أن يخاطر بتدمير سفينته، أو يطلق سراح الحوت.

لكن في سياقنا، القبطان آهاب لم يتخذ مثل هذا القرار، فقد كان انشغاله بمخططاته وخرائطه يمنعه من الانتباه إلى ما يجري وقتها على ظهر بيكود، مهمة صيد الحوت الأبيض التي أخذها على عاتقه كانت أكثر أهمية!

كان ستارباك هو من قرر قطع الحبال التي قيدت الحوت وإطلاق سراحه؛ فأمر كيويكيج بتقطيع الحبال بسكينه ووقف بعضنا على جانب السفينة والحوت العملاق يغوص ببطء في أعماق المحيط.

أحزنني التفكير في أن هذا المخلوق الرائع قتل بلا داع، للأسف تلك حقيقة مؤلمة من حقائق مهنة صيد الحيتان؛ إنها مهنة صعبة.

الفصل الرابع عشر

جابرييل

ذات يوم أبصرنا سفينة، عندما اقتربنا منها أشار القبطان آهاب إلى طاقمه بإيقاف سير بيكود؛ فمن عادة البحارة التوقف وتحية بعضهم بعضًا؛ بذا انتقلت الأخبار والرسائل في الرحلات الطويلة.

إلا أن السفينة لم تقربنا؛ فأمر آهاب بالاقتراب منها أكثر إلى أن نصبح قيد عشرين قدمًا منها، فمن هذه المسافة سنح له مخاطبة الرجال على متنها بسهولة.

سار قبطان السفينة — وهو رجل يدعى مايهيو — إلى سور سفينته. أخبرنا أن كثيرًا ممن على متن سفينته يعانون مرضًا شديدًا، ولأنهم لم يشاءوا أن تنتقل إلينا أي جراثيم، لم يريدوا الاقتراب منا أكثر.

فصاح آهاب إلى السفينة الأخرى: «أود فقط أن أعرف هل صادفتم الحوت الأبيض؟»

فقال مايهيو: «آه، موبي ديك. نحن نعرفه جيدًا.» ثم بدأ يحكي لنا قصته الطويلة.

فقال: «لقد غادرنا نانتكت وعثرنا على حطام سفينة أخرى هاجمها موبي ديك، لم يتبق منها الكثير.»

أثار هذا النبأ حماسة آهاب، ولم يقلق إزاء احتمال أن يكون رجال قد أصيبوا أو قتلوا أثناء هذا الهجوم، لقد طرب لسماع نبأ عن الحوت الأبيض وحسب.

تابع مايهيو كلامه قائلًا: «أخذ رجل من أفراد طاقمي يحذرنا من هذا الخطر الجسيم؛ أخبرنا جابرييل أن علينا أن نجتنب الحوت الأبيض، فإن رأيناه يسلك طريقًا، فعلينا أن نسلك طريقًا آخر.»

فسأله آهاب: «وهل أصغيتم له؟»

فهز مايهيو رأسه نفيًا وأجاب: «لم نعثر على موبي ديك إلا بعدها بعدة أعوام، أبصرناه من قمة الصاري فاتجهنا إليه على الفور، كيف عسانا أن نقاوم هذا؟ الكل يعرف موبي ديك، والكل يود أن يكون فردًا من الطاقم الذي سيظفر به.»

فقال القبطان آهاب: «لكنه ربح. أليس كذلك؟»

هذه المرة، أومأ مايهيو برأسه إيجابًا وقال: «ركبنا زوارقنا، وأخذنا نطارده، لكنه أطاح بقواربنا. أحد جدافينا طُرح من قاربه وهبط أربعين قدمًا في عمق المحيط، لم نره مرة أخرى.»

فسأل آهاب: «وهل كان هذا هو آخر عهدكم بالحوت؟»

مرة أخرى لم يبد أنه يبالي بالرجل الذي قُتل.

فأجابه مايهيو: «جميع رجالي صدّقوا جابرييل. كلهم يرون أنه كان محقًّا منذ البداية، ما كان ينبغي لنا قط أن نبحث عن الحوت الأبيض.»

تساءلنا جميعًا كيف ستكون ردة فعل القبطان آهاب حيال هذه الأنباء؛ فتلك كانت قصة مخيفة. لقد وعينا إلى أن السعي إلى صيد موبي ديك قد ينطوي على مخاطر، لكن هذه القصة ذكرتنا بأن واحدًا منا أو أكثر قد يلقى المصير ذاته الذي لقيه الرجل الذي ضاع في البحر.

سأل القبطان مايهيو: «لماذا تسأل هذه الأسئلة؟ أما زلت تبحث عن الحوت الأبيض؟»

فأومأ آهاب برأسه إيجابًا وقال: «نعم.»

عندئذ ركض رجل أحمر الشعر يرتدي صدرية ممزقة إلى سور سفينة القبطان مايهيو.

وصاح لآهاب: «لا، عليك أن تبتعد عن الحوت الأبيض؛ إنه هلاك للرجال.»

فصاح مايهيو: «جابرييل، ليس لك أن تتكلم هنا، وليس لك أن تحدث قبطان سفينة بهذه اللهجة.»

لكن جابرييل صاح: «لكن عليه أن يعرف! صيد الحوت الأبيض سيعني النهاية له ولطاقمه.»

تجاهل آهاب صياح جابرييل، حتى إنه لم ينظر إليه؛ فلم يكن لديه وقت لرجل مجنون.

وقال: «أعتقد أن لدينا خطاب لفرد من أفراد طاقمك»، ثم أرسل ستارباك إلى مخزن السفينة لتفقد حقيبة بريدنا.

اعتادت السفن أن تحمل البريد معها حتى تسلمه إن صادفت سفنًا أخرى في طريقها، تلك كانت إحدى الوسائل القليلة التي انتقل بها البريد عبر المسافات الطويلة.

عندما عاد ستارباك بالخطاب، قرأ آهاب على مايهيو اسم المرسل إليه؛ فقال: «إنه خطاب لهاري مايسي.»

فقال مايهيو متنهدًا: «آه. هذا هو الرجل الذي طُرح عن زورقه.»

فقال آهاب: «يؤسفني سماع ذلك.»

قال مايهيو: «سنأخذ الخطاب على أي حال. يبدو أن هذا هو الصواب.»

فصاح جابرييل: «لا، عليكم أنتم بالاحتفاظ بالخطاب. إن كنتم تبحثون عن الحوت الأبيض، فستلتقون مايسي عما قريب، عندئذ يمكنكم أن تعطوه الخطاب بأنفسكم.»

حاول ستارباك أن يمرر الخطاب إلى مايهيو مستخدمًا عمود طويل، لكن جابرييل أمسك بالعمود ودفعه ليعيده إلينا، فعاد الخطاب إلى سفينتنا ووقع عند قدمي آهاب.

هم آهاب بالتعقيب على هذا، لكن السفينة دارت فجأة ومضت مسرعة.

أمر جابرييل الجدافين بالمغادرة على الفور، فغادر الطاقم دون الحصول على تأكيد من القبطان.

دهشنا جميعًا على متن بيكود من هذا التصرف، فالقبطان وحده هو من يستطيع إعطاء أمر كهذا. بدا أن القبطان مايهيو لا يأمر بمعاملته بالاحترام الذي يستحقه، لعله هو أيضًا قد آمن بأن جابرييل يتمتع بقوى خاصة.

لعل الطاقم كله قد آمن بأن إطاعة أوامر جابرييل لن تضطرهم إلى ملاقاة الحوت الأبيض مجددًا.

الفصل الخامس عشر

يونجفراو

في يوم آخر، صادفنا سفينة أخرى تدعى يونجفراو. لم نقربها لكننا صحنا منادين من على متنها، فقدمت إلى مسافة قريبة منا.

كان طاقمها متشوقًا للتواصل معنا، ما إن اقتربت سفينتهم إلى مسافة كافية منا، حتى أنزلوا زورق تجديف من سفينتهم إلى الماء، واتجه قبطانهم نحونا.

سأل ستارباك: «ما هذا الذي يحمله القبطان في يده؟»

كان القبطان يحمل علبة صغيرة يرفعها عاليًا ورجاله يجدفون، بدا أنه يحاول الحفاظ عليها.

قال ستابز: «أعتقد أنه مصباح.»

وقد كان مصباحًا بالفعل! حمل قبطان يونجفراو مصباحًا زيتيًّا إلى بيكود.

قال ستارباك متعجبًا: «يا إلهي! لقد نفد منهم الزيت!» نفد زيت الحوت من على متن سفينة صيد حيتان! أيعني هذا أنهم لم يصيدوا أي حيتان؟

هز جميعنا رأسه عجبًا. لا بد أن تلك السفينة أبحرت عدة شهور دون أن تصيد حوتًا.

ما إن صعد القبطان — الذي علمنا فيما بعد أنه يدعى ديريك — إلى متن سفينتنا، حتى توجه إليه القبطان آهاب؛ فقد أراد أن يعرف إن كان طاقم يونجفراو قد أبصر موبي ديك.

حاول ديريك أن يجيبه، لكنه لم يتحدث الإنجليزية جيدًا، بل تحدثها بصعوبة، لكنه في نهاية الأمر، نجح في إفهام القبطان آهاب أنهم لم يبصروا موبي ديك.

أوضح القبطان ديريك لنا أنه يحتاج إلى ملء مصباحه الزيتي، فسمحنا له بالقيام بهذا قطعًا، وبعدها عاد إلى زورقه.

كان قد شارف تقريبًا على بلوغ سفينته، عندما لمحنا فجأة مجموعة من الحيتان، فلم يفكر حتى في مغادرة الزورق الذي يركبه، ومرر مصباح الزيت إلى رجل على ظهر سفينته وانطلق بقاربه خلف الحيتان.

نزلت الزوارق الماء بسرعة من كلا السفينتين، وبدأت المطاردة.

كانت هناك ثمانية حيتان، شكلت سربًا متوسط الحجم أدرك أنه في خطر فسبح أفراده متجاورين وهم يتصادمون فيما بينهم، تعذر على زوارقنا الاقتراب منهم إلى مسافة كافية.

تصايح وكلاء ربان سفينتنا — ستارباك وستابز وفلاسك — وصاحوا في أفراد طاقمهم.

صاحوا بلهجة خشنة واستخف كل منهم الآخر، وسخر منه ليجدف أسرع، لكن كل هذا لم يكن إلا من قبيل التشجيع؛ كانوا يحثون الجميع على الجد أكثر في العمل، وكل هذا لم يكن إلا جزءًا من اللعبة؛ من سباق الوصول إلى الحيتان، فقد أرادوا أن يحرزوا قصب السبق على زورق ديريك.

لكن ديريك ارتكب أخطاءً كثيرة؛ إذ هرع إلى الحيتان دون أن ينتبه إلى كل ما عليه فعله؛ فأخذت الأمواج تحمل مجاديف زورقه الذي عجز عن مواكبة زوارقنا، ومع كثرة الموج وكل هذه الإثارة التي حملها الموقف، كاد زورقه ينقلب.

من ثم تقدمت زوارقنا على زورقه؛ اتجه رجالنا مباشرًة بهدوء بالزوارق إلى مواقعهم وفي لمح البصر أحاطت زوارقهم الأربعة بأحد الحيتان.

ذعر الحوت، وأخذ يتقلب في الماء محاولًا الإفلات، لكننا ثبتنا في مواقعنا. أوشك صياد زورق ديريك على التصويب على الحوت في اللحظة الأخيرة لكنه أهدر فرصته؛ إذ وقف صيادونا صفًا تقريبًا وألقوا رماحهم.

طارت الرماح فوق رءوس الألمان وحطت فوق ظهر الحوت بالضبط، وانقلب قارب ديريك على جانبه وسط كل هذا الصخب فطُرح هو وصياده عن زورقهما في الماء.

بعد هذا حدث كل شيء بسرعة.

أمسك رجالنا بالحبل الذي قيدوا به الحوت وجذبوه لإحكامه قدر الاستطاعة حول الحوت الذي أصدر أصواتًا مريعة، وكان شديد الثقل إلى حد أننا خشينا أن ينقطع الحبل، لكننا تشبثنا به حتى لفظ الحوت أنفاسه الأخيرة فبدأنا نجره إلى بيكود.

الفصل السادس عشر

أنباء جديدة عن موبي ديك

ظل الجو طيبًا إلى أن بلغنا سواحل جنوب سنغافورة. آمن آهاب يقينًا بأنه سيقاتل الحوت الأبيض آخر الأمر في هذا المكان، فهو أكثر موضع شوهد فيه الحوت.

لقد وجدنا هناك الكثير من الحيتان؛ فآهاب كان محقًّا؛ تلك كانت نقطة تجد فيها الحيتان غذاءها، فسعينا وراء تلك الطرائد جميعًا.

لا أذكر وقتًا لم أكن فيه صائد حيتان في تلك النقطة من رحلتنا، ولا أذكر حياتي قبل أن أنضم إلى طاقم بيكود إلا بالكاد. اعتدت الصيد جدًّا حتى إنني تعلمت أن أتحرك بغريزة من قضى أعوامًا بين البحار. عشقت الإثارة والمغامرة.

لكن كانت هناك دائمًا مخاطر غير متوقعة، فعلى سبيل المثال: حوصرت قواربنا الصغيرة أكثر من مرة بين حوتين عملاقين، فلم تنجنا إلا براعة ستارباك.

قبل أن يمضي وقت طويل على معركتنا مع سفينة يونجفراو، صادفنا سفينة أخرى من إنجلترا تدعى صامويل إندربي، حيينا طاقمها فحيونا ودعونا إلى متن سفينتهم.

سأل آهاب سؤاله المعتاد قبل أن يغادر بيكود: «هل صادفتم الحوت الأبيض؟» فلم يجبه قبطان صامويل إندربي، وإنما رفع بدلًا من ذلك ذراعه؛ كانت ذراعًا مصنوعة من عظام حوت.

فصاح آهاب: «فهمت!» وقفز بسرعة في زورق اتجه به إلى السفينة الأخرى.

لكنه نسي لسوء الحظ أن الصعود إلى متن سفينة لا يألفها بساقه الخشبية سيكون صعبًا. كانت بيكود ذات تجهيز خاص يسمح له بالتجول فيها، أما السفينة الإنجليزية فقد استغرق صعوده إلى متنها وقتًا أطول قليلًا من المتوقع.

وبعدما بدا أنه لن يصعد السفينة قط، بلغ أخيرًا قبطانها، فسأله عن ذراعه.

قال: «الحوت ... أليس كذلك؟ الحوت هو من بتر ذراعك؟»

فأجاب القبطان الإنجليزي: «نعم، بترها كما بتر ساقك.»

فأومأ آهاب برأسه وقال: «قص علي قصتك. صف لي معركتك معه.»

فأومأ الإنجليزي برأسه، ثم أخذ يسرد قصته.

قال: «كانت تلك أول مرة أبحر فيها على متن سفينة صيد حيتان، ذات يوم أبحرنا دون توقف عندما بدا لنا فجأة أن قاع المحيط يرتفع بجانب سفينتنا. كان هذا الحوت الأبيض يصعد، لم أكن قد سمعت به من قبل، رأسه كان عملاقًا، ذو جبين مجعد، غُرست بجانبه رماح قديمة.»

فقال آهاب: «هذه رماحي. كانت هذه رماحي» تمتم بهذا بصوت بدا كالفحيح.

فتابع الإنجليزي كلامه قائلًا: «لقد حاول أن يقضم حبلًا يصل بين اثنين من زوارقنا».

فقال آهاب منفعلًا: «أجل، لقد عهدته! هذا هو ما يفعله! لكن أطلعنا على الباقي».

فقال القبطان: «أنا أحاول ذلك».

فحاول آهاب أن يهدأ، لكن هذا كان صعبًا؛ إذ تاق لسماع القصص عن الحوت الأبيض.

تابع الإنجليزي كلامه قائلًا: «كما أخبرتك. كان الحوت يعض حبلًا يصل بين اثنين من زوارقنا. لا بد أنه علق بأسنانه لكننا لم نفطن إلى ذلك، من ثم لما شددنا الحبل جذبناه لينقلب على جانبه وطُرحنا جميعًا في الهواء، لكن أين هبطنا؟ على ظهر الحوت بالضبط! ضرب زورقنا الصغير عدة مرات بسرعة فتحطم».

ثم تابع كلامه قائلًا: «حاولت أن أتشبث برمح غرس بجانبه، لكنني لم أستطع ذلك لوقت طويل؛ فأمواج البحر كانت عاتية وسحبت تحت الماء وفي طريقي مررت برمح آخر برز من جانب الحوت مزق جلدي».

انضم جراح السفينة إلى المحادثة وأخبر رجالنا عن المحاولات التي بذلها لإنقاذ ذراع القبطان كانت إصابته بالغة حتى إن الذراع كان لا بد من بترها.

أنصت الرجال جميعهم إلى القصة باهتمام، لكن آهاب كان قد بدأ يفقد صبره؛ إذ لم يرد أن يستمع إلى قصة علاج القبطان؛ أراد أن يجمع معلومات حول الحوت.

فسأل: «هل رأيتموه مجددًا. هل كانت تلك آخر مرة أبصرتم فيها موبي ديك؟»

فأجاب القبطان: «لم نكن حتى متأكدين من أنه موبي ديك؛ فقد كنت حديث العهد بسفن صيد الحيتان كما أخبرتك، لكنني أدركت أنه هو عندما التقينا بغيرنا من صيادي الحيتان وقارننا ملاحظاتهم عنه بملاحظاتنا».

فألح آهاب في سؤاله قائلًا: «أجل، لكن هل رأيتموه ثانيةً؟»

فأجاب القبطان الإنجليزي: «نعم، أبصرناه مرتان أخرتان»

فسأل آهاب ذاهلًا: «ولم تمسكا به؟!»

– «لم نحاول حتى القيام بهذا. لقد خسرت أحد أطرافي. يكفي هذا».

فقاطع جراح السفينة الحديث قائلًا: «عليك أن تتذكر أن الحوت لا يمكنه أن يهضم شيئًا كبير الحجم. من الناحية التشريحية يستحيل له هذا؛ فإن عضك حوت ما، فهذا ليس إلا لأنه خطر».

هنا فرغ صبر آهاب، فنفض ذراعيه في الهواء، وزفر في ضجر.

ثم صاح في جدافي زورقه: «عودوا إلى الزورق يا رجال»، وفي لمح البصر، عادوا إلى متن بيكود.

هناك، نظر آهاب جيدًا إلى ساقه العاجية فتبين له أنه أتلفها؛ إذ لم يتعود الركض والهرولة؛ كانت قصة الحوت قد أزعجته ويرجح أنه داس على ساقه بقوة بدون أن ينتبه إلى ذلك، من ثم نادى نجار السفينة.

قال له: «أريدك أن تصنع لي ساقًا جديدة. أريد عظمة من عظام الحوت التي نختزنها. جد أفضل عظمة وخذ كل المقاييس اللازمة. سأحتاج هذه الساق الليلة».

فغادر النجار على الفور ليبحث عن أفضل عظمة حوت تناسب قبطانه.

الفصل السابع عشر

ستارباك

فيما عكف القبطان آهاب في كابينته على وضع الخرائط وانتظار ساقه الجديدة، انهمك سائرنا في عمله. كان علينا أن نضخ زيت الحوت في براميل نحتفظ بها في مخزن السفينة.

آنذاك كان ستارباك يصدر التعليمات لرجال المخزن عندما دُعي إلى سطح السفينة لأن أحد الرجال لاحظ أن الزيت يتسرب إلى ماء البحر حول بيكود، مما يعني أن البراميل تسرب الزيت، وهذا سيء.

قصد ستارباك مكتب القبطان آهاب ليحدثه عن تلك المشكلة الجديدة فتبعته تحسبًا لأي أوامر جديدة.

قال ستارباك: «سيدي. الزيت يتسرب من المخزن. سنضطر إلى الرسو في اليابان للقيام ببعض الإصلاحات.»

فقال آهاب: «نتوقف؟ هل تقترح أن نتوقف بعد أن صرنا في أثر موبي ديك؟ لقد سمعنا أخيرًا بمشاهدات له!»

– «إن لم نتوقف يا سيدي، فسنفقد في يوم واحد زيتًا أكثر مما قد نجمعه في عام.»

– «لن أضيع وقتًا في أمر تافه كهذا.»

حاول ستارباك أن يشرح له الأمر قائلًا: «لكننا أبحرنا عشرين ألف ميلًا من أجل هذا.»

فقال آهاب هازئًا به: «لم نبلغ هدفنا بعد.»

فقال ستارباك: «أنا أتحدث عن زيت الحوت يا سيدي.»

فقال آهاب بصرامة شديدة: «وأنا قطعًا لا أتحدث عنه. رجاءً اتركني الآن، لا يمكنني أن أنشغل بأمر كهذا.»

فقال ستاربك وقد بدأ وجهه يحمر غضبًا — لكنه حاول ألا يفقد أعصابه — سيدي، لا أستطيع أن أوافقك على منطقك هذا.

فقال آهاب: «أنا قبطان هذه السفينة، مما يعني أنني المسئول فيها، مما يعني أنني ربانها وقائدها. الآن، عد إلى سطح السفينة واتركني لواجباتي.»

فدار ستاربك على عقبيه وعاد إلى ظهر السفينة؛ فسرت في أثره، لكن قبل أن أفعل رأيت القبطان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

تمتم لنفسه قائلًا: «كيف يجرؤ على التحدث إلي بهذه الطريقة. علي أن أعاقبه، سأحرص على ألا يصبح وكيل ربان أول مجددًا».

ثم اتجه إلى ظهر السفينة وشاهد من بعيد طاقمه وهو يعمل.

كان ستاربك يقود الطاقم إلى العودة إلى مخزن السفينة بالطابق السفلي حيث كنا سنشرع في إصلاح موضع التسريب بأنفسنا بدلًا من التوقف لإصلاحه.

فأدرك آهاب أنه ربح معركته مع ستاربك، وقال مخاطبًا نفسه: «أعتقد إذن أنك أصغيت لأوامري. آه يا ستاربك. لعلك صادق أكثر مما يجب».

ثم استدعى طاقمه وقال: «ارفعوا المرساة وانصبوا الشرع عاليًا. سنمضي في طريقنا.»

فأطاع الجميع الأمر، وانطلقت بيكود مجددًا للبحث عن الحوت الأبيض.

واصلنا البحث عن موضع التسريب في براميل الزيت الخشبية. البراميل الجديدة كانت بحال جيدة، لذا كان من المؤكد أن البراميل القديمة التي حشرت في نقطة أبعد بالمخزن هي التي تسرب الزيت لكننا أوغلنا في البحث، وواصلنا رحلة صيدنا.

كان المخزن مظلمًا باردًا شديد الرطوبة. لسوء الحظ مرض كويكيج أعز أصدقائي لهذا السبب وأصيب بحمى شديدة وهو يعمل هناك.

وضعناه على الأرجوحة الخشبية التي ينام عليها ودثرناه بالأغطية لنقيه الشعور بالبرد، لكن سرعان ما أخذ جسده يذوى، وبرزت هالات داكنة تحت عينيه، ووجد صعوبة في الانتباه إلينا ونحن نعني به. ظننا جميعًا أن ساعته قد حانت.

ناداني لأكون بجانبه ذات يوم وطلب مني أن أسديه معروفًا. أراد أن يدفن في زورق كالزوارق الخشبية الداكنة الطويلة التي رآها في نانتكت، لقد أخبره من يبيعها أن صيادي الحيتان يدفنون فيها.

لم أرد أن أتحدث عن موته، لكنه أصر على التحدث في الأمر وقال: «هذه أشياء عليك بمعرفتها».

عليه أخذ نجار السفينة في بناء زورق خشبي طويل له.

فلما فرغ من بنائه، طلب كويكيج رؤيته. ثم سأل شخص ما أن يأتيه برمحه، وطلب أن يوضع الرمح في الزورق بجانب مجداف من زورق الصيد الذي كان يركبه، ولُفت قطعة قماش من أحد الشرع على هيئة وسادة ووضعت في الزورق.

بعدئذ طلب كويكيج أن يحمل إلى الزورق، لأنه أراد أن يستريح به، فسادت حالة من الترقب؛ حسبنا جميعًا أن كويكيج لن يلبث أن توافيه المنية في صمت وهو في هذه الوضعية.

لكن لم يحدث شيء. تمدد كويكيج هناك فقط وهو مغمض العينين، فأعدناه إلى أرجوحته الخشبية، وبعدئذ، أخذت حاله في التحسن.

عاد إلى حالته الطبيعية في غضون أيام قليلة، فهب فجأة على قدميه، وألقى ذراعيه في الهواء ثم رقص رقصة سريعة في مرح، ولم يترك زورقه يضيع سدى؛ استخدمه كصندوق يحتفظ فيه بكل أغراضه.

بعد مرور يومين فقط على شفاء كويكيج، صادفنا سفينة رايتشيل.

أمر القبطان آهاب كالعادة بالرسو إلى جانب السفينة وسأل طاقمها إن كانوا قد رأوا الحوت الأبيض.

فأجاب قبطان رايتشيل: «أجل، رأيناه البارحة».

فلم يستطع آهاب احتواء حماسته! أراد أن يهرع إلى ظهر سفينته ويبدأ البحث عن موبي ديك على الفور.

سأل متلعثمًا: «أين هو؟ لم يقتل. أليس كذلك؟ آمل ألا يكون قد قتل».

فقص القبطان قصة طاقمه مع الحوت. كان الطاقم يطارد سربًا من الحيتان، عندما لاح أمامهم فجأة موبي ديك. أحاطت الأمواج بزوارقهم وأصبح البقاء على ظهر الماء أصعب بفعل الضربات القوية المخيفة التي سددها موبي ديك بذيله.

ثم اختفى أحد الزوارق وسط هذه الجلبة. لم يدروا إن كان قد غرق أم تاه في عرض البحر.

فقال قبطانهم: «نحن بحاجة إلى مساعدتكم، رجاء ساعدونا في العثور على زورقنا الذي نفقده، لا نريد أن يضيع رجالنا».

فبذل آهاب ما بوسعه للتملص من الحديث عن ذلك؛ إذ أراد أن يبحث عن الحوت الأبيض لا عن زورق مفقود، من ثم افترق بسفينته عن سفينة رايتشيل بدون أن يودع طاقمها أو يتمنى لهم حظًا طيبًا.

خلد أغلبنا إلى النوم هذه الليلة، ولم يبق إلا بعضنا ساهرًا يؤدي عمله.

إلى أن صاح صوت من قمة الصاري: «حوت ينفث الهواء. وهو موبي ديك! موبي ديك صاعد لتنفس الهواء.»

الفصل الثامن عشر

اليوم الأول

«الزوارق! الزوارق! إلى الزوارق يا رجال!» صاح القبطان آهاب بتلك الأوامر وهو يهبط الطابق العلوي من السفينة؛ لم يهبط إلا بضع درجات قبل أن يبلغ جانب بيكود.

نزلت جميع الزوارق الماء عدا زورق ستارباك. كان ماء البحر هادئًا مستقرًا، امتد أمام الرجال وكأنه بساط. جدفوا جميعًا بسرعة، لكنهم دنوا من هدفهم بحذر. كان زورق آهاب في الطليعة.

طفا زورقه على مسافة قصيرة جدًّا من الحوت حتى إن من على متنه استطاعوا أن يبصروا رأس موبي ديك الأحدب وهو يسبح بنعومة في الماء. رأى القبطان آهاب جبين الحوت المجعد وهو يبرز من الماء فاحتبست أنفاسه. كان مشهدًا جميلًا.

تراقصت فقاعات الماء بجانب رأس موبي ديك وهو يسبح في الماء، وحامت الطيور فوق ظهره؛ كانت تنزل الماء ثم تطير مجددًا إلى السماء.

برز من ظهر الحوت رمح طويل يذكر بصياد قاتل الحوت الأبيض وخسر معركته معه.

أدركت عندئذ كيف يجذب موبي ديك الكثير من البحارة الذين يحسبون أنهم قادرون على هزيمة هذا الوحش وصيده؛ كان الاقتراب منه يبدو سهلًا، وبدا هادئ الطباع، إلا أن تلك لم تكن الحقيقة.

رفع موبي ديك أخيرًا جسده الهائل عن الماء وانحنى على نحو مذهل ليكشف عن رأسه العملاق وفكه المخيف ثم ارتطم بالماء ليرسل موجة من الزبد امتدت إلى الزوارق التي اقتربت منه ثم غاص مجددًا في الماء.

أمسك الرجال على متن الزوارق بمجاديفهم واستعدوا لإنزالها في الماء وبدء التجديف عندما يعطي آهاب الأمر بذلك، وانتظر الجميع أن يبرز موبي ديك مجددًا من تحت الماء.

أشار رجل إلى السماء وقال: «الطيور! انظروا إلى الطيور!»

اندفعت الطيور فجأة نحو قارب آهاب وهي تصدر صيحات فرح؛ فقد فطنت إلى ما أوشك أن يحدث.

بدأ ماء البحر يفور. نظر آهاب أسفل قاربه فوجد نقطة بيضاء تحته أخذت تكبر شيئًا فشيئًا حتى تحولت إلى رقعة بيضاء كبيرة، عدلت مسارها إلى جانب القارب ثم ظهر صفا أسنان مخيفين. كان هذا موبي ديك يصعد من القاع فاغرًا فاه، وهو يتأهب لابتلاع قارب آهاب.

انتزع آهاب مجدافًا من أحد رجاله وانعطف بالزورق بسرعة ثم اتجه إلى مقدمته والتقط رمحًا وتأهب للتصويب وأمر رجاله بالاستعداد للتجديف فور ما يعطي الأمر بذلك.

هدفت تلك الخطوة إلى أن يصل الزورق إلى جانب رأس الحوت عندما يبلغ سطح الماء، لكن لا شك أن موبي ديك فطن إلى هذا؛ إذ تحرك ليتبع آهاب، وتقلب في الماء ليصعد بالجزء السفلي منه أولًا إلى السطح ثم بجزئه العلوي وفغر فاه على آخره ورفع فكه السفلي فوق الزورق محاولًا أن يقضمه.

أفلت آهاب بأعجوبة من أحد أسنان الحوت وهو يطبق بفمه على أحد طرفي الزورق الذي أمسكه بفمه وأخذ يهزه كما يهز الهر جرذًا فحاول الرجال الإفلات من فكه بالاتجاه إلى الطرف الآخر من الزورق، كلهم فعل هذا، عدا آهاب الذي لزم موقعه في مقدمة الزورق.

لكن حتى سائر الرجال لم يستطيعوا الفرار بعيدًا؛ فالزورق كان صغيرًا لا سيمًا إن قورن بفك الحوت العملاق. حاول الرجال أن يضربوا موبي ديك بمجاديفهم ورماحهم لكنهم ما كانوا ليحسنوا التصويب قط؛ إذ لم يستطيعوا الوصول إلى أبعد من فكه؛ كان جزء كبير من الزورق في فمه.

بدأ الزورق يتحطم حول الرجال. كان آهاب يطعن الحوت بالمجاديف والرماح ويضربه بكل سخطه لكن بلا طائل، إلى أن انقسم الزورق الصغير إلى نصفين.

فسقط جميع من يحمله بالماء. سبحوا معًا وتشبثوا بنصف حطام الزورق، يرفعهم الموج تارًة ويضعهم أخرى.

وطُرح آهاب على وجهه في الماء، وغاص تحته.

هنا ابتعد الحوت عن حطام الزورق وسبح على مقربة من الرجال. كان الجزء الأعلى من رأسه يعلو سطح الماء بعشرين قدمًا. تواثبت الأمواج على جسده وهو يتربص لهم لبعض الوقت.

ثم أخذ يسبح مجددًا. دار حول الحطام والطاقم في دوائر. كان هائل الجسم إلى حد أنه صنع دوامة حولهم.

تصارع آهاب مع الموج، إذ تعذر عليه السباحة بساق واحدة. كان رجال زورقه يتشبثون بحطام الزورق فلم يستطيعوا الوصول إليه، أما زوارق الصيد الأخرى — بما فيها الزورق الذي حملني — فلم يلحق بها ضرر. شاهدنا جميعًا المشهد بأكمله وأردنا بشدة أن نساعد القبطان، لكن لم يكن هناك سبيل لاعتراض المسلك الذي صنعه الحوت؛ لقد ضاقت دوائره أكثر فأكثر وحاصرت الرجال جميعهم.

فصاح آهاب لمن ظل على متن بيكود: «أبحروا! أبحروا!» ثم اعترضت موجه هائلة صياحه.

تابع بعدها كلامه قائلًا: «أبحروا نحو الحوت! أبعدوه».

وكان هذا ما فعلته بيكود. أبحرت معترضة الدوائر التي سلكها الحوت فسبح مبتعدًا وتحركت زوارق الصيد الأخرى لإنقاذ القبطان ورجاله.

جذب ستابز آهاب إلى زورقه، أما زورقي فكان قد عاد بالفعل إلى بيكود. انحنيت أنا وكويكيج على سور السفينة لنشاهد إنقاذ القبطان. لقد تمدد على أرض زورق ستابز محطمًا، مكدومًا ونادى على الأخير.

فسأله: «أين رمحنا؟ هل فقدنا رمحنا؟»

فأجاب ستابز: «كلا يا سيدي. إنه معنا هنا».

فتنهد آهاب قائلًا: «جيد ... جيد ... فضلًا ضعه بجانبي».

فوضع ستابز الرمح على صدر آهاب.

ثم سأل آهاب: «والرجال؟ هل فقدنا أي من الرجال؟».

فهز ستابز رأسه نفيًا وقال: «كلا يا سيدي. جميعهم هنا».

فقال آهاب: «ساعدني لأقف. أريد أن أقف.»

فساعد ستابز ورجل آخر القبطان على الوقوف، فنظر صوب الاتجاه الذي سبح فيه موبي ديك.

ثم صاح: «انظروا. أستطيع أن أبصره. ها هو منخاره ينفث الماء في البحر. هذا هو كل ما أحتاجه. لقد استعدت قواي. لتجهز مجاديفكم! سلحوا الصيادين! لقد عدنا إلى القتال».

لكن الحوت الأبيض سبح بعيدًا بسرعة كبيرة، سرعة تفوق بكثير قدرة زورق صغير تحركه المجاديف. كانت مواكبته مستحيلة.

من ثم، حُمل الزورقان المتبقيان إلى بيكود، وانطلقت السفينة لمطاردة الحوت. صرنا في لمح البصر نسير خلف الزبد الذي خلفه وهو يمضي.

بحث الرجال على متن صاري السفينة عن أثر له، وكلما لمح أحدهم كيانًا أبيضًا يشق سطح الماء نادى على الطاقم وأعلمه متى غاص الحوت تحت الماء.

ذرع آهاب ظهر السفينة جيئةً وذهابًا منتظرًا أن يصعد موبي ديك إلى السطح مجددًا. شعر بالانزعاج الشديد وأخذ يعد الدقائق إلى أن مضت ساعة، فالحيتان لا تستطيع أن تمكث تحت الماء لأكثر من هذه المدة، وما أن مضت آخر ثانية من الساعة، نادي على طاقمه سائلًا: «هل رآه أحد؟ هل سيربح أحدكم الدبلون؟».

لكن لما جاءته الجواب بالنفي، شعر بالإحباط أكثر وأبى أن يغادر ظهر السفينة. ظل يحدق في الماء منتظرًا أي إشارة على وجود موبي ديك.

وامتد انتظاره طوال الليل، إلى صباح اليوم التالي.

الفصل التاسع عشر

اليوم الثاني

تبادل الرجال على قمة صاري السفينة نوبات المراقبة فجرًا، لم يكن هناك سبيل إلى معرفة المسافة التي قطعها موبي ديك، ولم ندر هل ما زلنا في أثره.

لكن لما بدأ الأمل يهجرنا، لاح موبي ديك للعيان.

قفز في الهواء ثم عاد إلى الماء مرتطمًا به، بدا هذا مشهدًا رائعًا لكنه بث الخوف في قلوب العديد من الرجال؛ إذ كنا قد رأينا ما بوسع الحوت أن يفعله.

صاح آهاب لموبي ديك: «آمل أن تكون قد عرفت أنك بصدد الموت، رجالنا مستعدون، رماحنا معدة. هذه نهايتك.»

أُنزلت ثلاثة قوارب إلى الماء هذه المرة، ركب كويكيج أحدها، وركبت أنا في زورق آخر، أما ستارباك، فقد مكث على ظهر بيكود.

قال آهاب لستارباك: «السفينة تحت قيادتك يا ستارباك، انأ بها عن الزوارق لكن لا تبتعد بها.»

لم تستغرق الزوارق إلا وقتًا قصيرًا لبلوغ الماء وزورق آهاب يتوسطها، فاندفع موبي ديك نحونا مسرعًا إلى أن بلغ سرعة مخيفة، سبح فاغرًا فاه على آخره وذيله يتلوى بعنف كالسوط.

كان جميع من بالزوارق بحارة ذوي خبرة، من ثم لما فطنوا لما قد يقع، عرفوا كيف ينأون عن الوحش. أخذت الزوارق تنعطف وتدور لتبتعد عن الحوت الثائر، وصرخ آهاب بصيحات تشجيعية للجميع، ووعد بأن نفوز ونقضي على موبي ديك. ما كان ليسمح له بالتفوق مجددًا.

تمكن الصيادون من إصابة الحوت برماحهم والزوارق تقترب منه وتبتعد عنه. هللنا مع كل رمح غاص في جسده، إلا أن هذا لم يبطئه.

ولأن كل رمح اتصل بحبل، امتدت الكثير من الحبال بين الزوارق وتشابكت مع اندفاع موبي ديك كالسهم نحو الزوارق واندفاع الزوارق بعيدًا عنه.

ثم نمت خطورة الموقف؛ احتُجز قارب آهاب بين الحبال وعجز عن الحراك.

فاتخذ آهاب الإجراء الوحيد الممكن؛ أخذ في قطع بعض الحبال؛ إذ لم يتح سبيل آخر لتخليص زورقه.

فغاص الحوت إلى عمق كبير في الماء ثم اندفع إلى السطح، لكن ليضرب هذه المرة قاع زورق آهاب بأنفه ويطيح به في الهواء، فيسقط القبطان وطاقمه في الماء.

بعدها غاص موبي ديك مجددًا في الماء وسبح بعيدًا تاركًا البحر ساكنًا بعض الوقت.

دنت سفينة بيكود وجذبت طاقم زورق آهاب إلى مأمن.

طلب آهاب المساعدة للمشي على ظهر السفينة؛ شهق الكثير من الرجال لدى رؤيته لكن لم ينبس أحدهم بكلمة؛ كانت ساقه العاجية قد انكسرت ولم يتبق منها إلا شظايا.

توقف آهاب وقتًا كافيًا لطلب عكاز، ثم دعا رجاله إلى حماية زوارق الصيد وصاح آمرًا برفع الشرع لإسراع سير السفينة. صاح قائلًا: «لقد اقتربنا من غايتنا يا رجال! سنمسك بهذا الحوت قريبًا.»

هنا فاض الكيل أخيرًا بستارباك، فلم يعد قادرًا على احتمال رؤية طاقمه يعرض للخطر مجددًا. كان الرجال قد ظلوا يقظين قرابة يومين، وكانوا بحاجة إلى قسط من الراحة.

من هنا صاح ستارباك في آهاب: «لن نمسك به أبدًا أيها الكهل! لن نمسك به بهذه الطريقة، هذه المطاردة استمرت يومين، وقد فقدنا قاربين! وأنت خسرت ساقك مجددًا. ما الذي تنتظره؟ ألن تكف إلا عندما يقتل رجالك جميعًا؟»

دهشنا جميعًا من الطريقة التي خاطب بها ستارباك القبطان. لم نعهد موقفًا كهذا قط، فالبحار لا يصيح قط في قائده؛ عليه أن يطيع الأمر بالحرف الواحد وإلا عد خائنًا. توقعنا جميعًا أن يعاقب آهاب ستارباك أو أن يأمر بحبسه، لكن آهاب أجابه بهدوء.

قال له: «لا يسعنا التوقف الآن، هذا حكم القدر، هذا الحوت قدر لي، وأنت فرد في طاقمي، لذا فقد قدر لك أنت أيضًا.»

نادى الرجل الذي وقف على قمة صاري السفينة الجميع تحته.

صاح: «إنه يسبح بجوارنا» وأشار إلى جسم أبيض عن يسار السفينة. سبح موبي ديك مسايرًا بيكود عدة أميال، وبعدها اختفى مجددًا تحت الأمواج.

الفصل العشرون

النهاية

سنحت لنا الفرصة أخيرًا للإمساك بالحوت في اليوم الثالث، فمع أن آهاب فقد ساقه، أصر على أن يقود زورقًا ورفض أن يسمح لأي شيء بعرقلته عن ذلك.

نادى على ستارباك لدى إنزال قاربه الماء وقال له: «لا يخرج الكثير من الرجال من هذه المعارك أحياء.»

فقال ستارباك: «أجل سيدي. أنت محق تمامًا.»

– «ستارباك، أنا كهل. صافحني يا رجل.»

فأمسك ستارباك يده وشدد عليها ثم قال: «سيدي القبطان، هلا أعدت التفكير في الأمر؟ ابق معنا على ظهر السفينة.»

فأفلت آهاب يده وأمر بإنزال الزورق.

هنا انتبه ستارباك إلى خطر جديد وصاح: «أسماك قرش! عد يا سيدي! أسماك قرش قادمة.»

لكن آهاب لم يسمع شيئًا من هذا. كان قد أخذ في التجديف مبتعدًا وفي إعطاء الأوامر للرجال محاولًا الاقتراب بزورقه من موبي ديك.

سُمعت صيحة. كان الرجل الذي يقف على قمة صاري السفينة يصرخ بشيء لآهاب؛ الحوت كان يصعد تحت زورق آهاب؛ لكن آهاب حرك زورقه أملًا في أن يصل برجاله إلى نقطة مناسبة لإصابة موبي ديك بالرماح.

اندفع موبي ديك خارجًا من الماء ثم عاد إليه مرتطمًا به وجسده تكسوه الرماح والحراب القديمة والجديدة ويجرجر في أثره حبالًا.

اهتزت كل الزوارق من أثر ارتطامه بالماء، لكن الجميع ظل على ظهر السفينة.

شاهد ستارباك كل ما يجري فحدث نفسه قائلًا: «آه، يا سيدي. ليتك تترك هذه المهمة المريعة، لما لا تدرك أن الحوت لا يكترث لك. أنت من يطارده لا هو من يطاردك.»

لكن آهاب واصل مهمته. اتخذ رماة الرماح مواقعهم على قمة صاري السفينة، وتمركز آخرون عند سورها.

استطاع آهاب أخيرًا أن يدنو من الحوت ورماه برمحه؛ فاستقر الرمح فوق صدر الحوت الهائل وتقلب موبي ديك عدة مرات محاولًا أن يتخلص من الرمح والحبل المتصل به، لكنه أثناء تقلبه كاد أن يسحب معه آهاب وقاربه.

هنا جدف الرجال على متن زورق آهاب سريعًا لنقل الزورق إلى نقطة أكثر أمنًا. تعين عليهم الاندفاع عدة مرات إلى الأمام وإلى الخلف قبل أن يبلغوا نقطة آمنة؛ فسبح موبي ديك مبتعدًا عنهم، وأخذ يترقبهم. كان يستريح على مسافة قصيرة منهم.

توقع كل الرجال على متن بيكود ما سيلي. حاول الرجال على قمة الصاري تحذير آهاب، لكنه لم ير أو يسمع إلا الحوت.

اندفع الحوت إلى الأمام فجأة من جديد بسرعة كبيرة، لكن آهاب صوب ببراعة نحوه مجددًا واخترقه برمح آخر.

ثم نظر إلى بيكود، كان ستارباك يستند إلى سور السفينة والقلق البالغ يبدو عليه، أما سائر أفراد الطاقم فقد أخذوا في الاستعداد لجذب الحوت إلى بيكود. بدا التعب والإنهاك على الجميع تحركوا لكن ناعسين.

حتى الحوت الهائل بدا أنه يبطئ، لعل قواه بدأت أخيرًا تخور بعد مطاردته ثلاثة أيام. لم يبد النشاط إلا على أسماك القرش المحيطة.

تساءل آهاب عندئذ هل تنتظره أسماك القرش أم تنتظر الحوت.

ثم غاص بدون تردد برمح آخر في جسد موبي ديك.

فأصدر الحوت أنينًا وتقلب على جانبه ضاربًا قارب آهاب أثناء ذلك حتى كاد يقلبه.

تمكن آهاب من الإمساك بعارضة خشبية فلم يسقط في الماء، لكن الحظ نفسه لم يحالف ثلاثة من رجاله وقعوا من الزورق لكنهم استطاعوا الطفو على سطح الماء.

دمر زورق آهاب تقريبًا، وطرح بعض من رجاله في البحر وتبعثرت الحبال والرماح على أرض الزورق.

فدنت سفينة بيكود لتقديم المساعدة، أراد سائر الطاقم أن ينتشل الرجال الذين طرحوا من زورقهم وأن يساعدوا القبطان آهاب على العودة إلى السفينة.

فالتفت موبي ديك مواجهًا السفينة الضخمة، رفع رأسه قليلًا فوق الماء وكأنه يراها للمرة الأولى. لعله قرر عندئذ أنها السبب في جميع مشاكله، فتربص لحظة ثم اندفع نحوها.

رأى آهاب ورجاله الحوت وهو يندفع صوب السفينة؛ فحاولوا عمل أي شيء للحيلولة دون وقوع هذه الكارثة. جدفوا بأقصى سرعتهم وصاحوا للرجال على متن بيكود، لكن دون فائدة.

ضرب الحوت السفينة بكل قوته فاهتزت وطرح جميع من على متنها أرضًا، فنهضوا على الفور محاولين بلوغ السور إذ كان عليهم أن يتأهبوا لإلقاء الحبال على الحوت أو رميه بالرماح إن لزم الأمر.

لكن موبي ديك ضرب السفينة مجددًا وطرح كل من على متنها أرضًا مرة أخرى.

بلغ الرجال سور السفينة واستعدوا للحوت بالرماح والحراب، وانتظروا أن يظهر مجددًا وقد تسلحوا لمواجهته.

إلا أنه عندئذ كان تحت السفينة. ضرب قاعها مجددًا برأسه فتصدع مصدرًا طقطقة مدوية سمعها الرجال؛ موبي ديك حطم السفينة. كانت تغرق!

فيما أخذ موبي ديك يضرب السفينة برأسه، صوب آهاب نحوه مرة أخرى وسدد له رمحًا اخترق لحمه فأطلق صرخة مريعة.

فصعد الحوت من تحت السطح الماء، كان رأسه يعلو صاري السفينة الغارق بارتفاع كبير لكنه عاد إلى الماء مرتطمًا به وغاص في الأعماق.

تبعه الحبل المتصل بآخر رمح ألقاه آهاب، ولم يبد أن القبطان آهاب قد انتبه إلى أن الحبل متشابك. دار الحبل خارج الزورق على نحو لا يمكن السيطرة عليه تابعًا الرمح والتف حول رقبة آهاب وانتزعه من الزورق قبل أن يتسنى له أن يصيح، وجره الحبل خلف الحوت.

وقف من تبقى في زورق آهاب في البداية بلا حراك مشدوهين. لما التفتوا إلى بيكود، واجهتهم مفاجأة أكبر، فلم يتبق شيء من السفينة سوى الجزء الأعلى من صاريها، شاهدوه وهو يميل ثم يغوص ليغمره الماء إلى الأبد.

ثم جذبت الدوامة التي صنعتها سفينة بيكود الغارقة زورق آهاب — آخر زورق صيد — ليتبع السفينة إلى الهلاك.

قد تتساءل أين كنت أنا طوال هذا الوقت؟ كنت مع آهاب على متن زورقه، شاهدته وهو يُجر خلف الحوت من على بعد أقدام قليلة.

أنا كنت الناجي الوحيد من سفينة بيكود، الباقون جميعهم غرقوا مع السفينة أو آخر زورق صيد، أنا من تبقى ليروي قصة القبطان آهاب مع موبي ديك.

حاول الكثير منا أن يسبح بعيدًا عندما سُحب زورق الصيد الذي كنا نركبه بتأثير سفينة بيكود الغارقة، كنت أنا الوحيد الذي سبح إلى نقطة آمنة، لكن لم يتبق لي شيء، ولم تلح لي أي فرص أخرى للنجاة. حسبت أنني لن ألبث أن أغرق، أو أن أسماك القرش لن تلبث أن تجدني.

ثم أبصرت صندوقًا خشبيًّا يندفع من تحت الماء طفا نحوي، كان هذا هو كفن كويكيج.

تسلقت إلى داخل الصندوق وطفا بي ثلاثة أيام، في نهاية الأمر انتشلت من الماء، عثر علي طاقم سفينة رايتشيل، كانوا ما يزالون يبحثون عن زورق الصيد ورجالهم الذين فقدوهم.

شعرت أنه من الغريب أن تبحث سفينة رايتشيل عن أبنائها المفقودين لتجدني أنا وحسب؛ لتجد يتيمًا آخر.